مجموع رسائل العلامة مرعي الكرمي الحنبلي .... الرسالة رقم: (٤٨)

قلائد العقيان

في فضائل

آل عثمان

تأليف العلامة

مرعي الكرمي الحنبلي

تطبع محققة على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

محمد وائل الحنبلي

دار اللباب

الطبعَة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م



الخطوط بقلم: عدنان الشيخ عثمان

الإخراج الفني: خالد محمد ياسين علوان

دار اللُّبَاب للدِّراساتِ وتَحقِيق التُّراثِ

تركيا - اسطنبول - الفاتح - اسكندر باشا - كزتاش - مفرق بنك الكويت

مقابل مستشفى الفاتح - بناء رقم ٧ - ط ٥

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

Www.allobab.com - Email: info@allobab.com

بسم الله الرحمن الرحيم
قال الشيخ الإمام، والحبر الهمام، العالم
العلامة، العمدة الفهامة، شيخ الإسلام
والمسلمين، عمدة العلماء المحققين، مرعي بن الشيخ
الإمام يوسف بن أبي بكر بن أحمد الحنبلي رحمه الله
تعالى آمين: الحمد لله الرحيم الرحمن الحليم
المنان، الملك الديان، القاهر سلطانه كل
سلطان، الممنوح إحسانه لكل إنسان، يؤتي
الملك من يشاء، ويعز من يشاء، لا إله إلا هو كل
يوم هو في شأن، والصلاة والسلام على سيدنا محمد
المبعوث من أشرف قحطان وعدنان، والمرسل إلى
الإنس والجان، الحائز إمامة الخلافة والملك
والرفعة والشأن، وعلى آله وأصحابه وخلفائه
أبي بكر وعمر وعلي وعثمان، ما اصطفت
الصفوف وبرقت السيوف، ولمع السنان
وقام الكفاح، وتلاطم الرماح، وخفقت رايات آل
عثمان يوم حرب وطعان، وبعد فهذه
مفاخر يلذ بمعانيها معانيها، ومآثر يطرب بما
فيها مآثر فيها، تتحفك بالأخبار العجيبة، وتقفك
على الأسرار الغريبة، وتجلو عليك من الخرائد
الحسان أوجها، وتدني إليك من الفوائد شموساً
طالما سما بها أوجها، ذكرت فيها مفاخر سلاطين
آل عثمان ومآثر سلاطين من فاقوا بني ساسان

مكتبة أسعد أفندي (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم
قال الشيخ الإمام والحبر الهمام العالم العلامة العمدة الفهامة
شيخ الإسلام والمسلمين عمدة العلماء المحققين مرعي بن الشيخ الإمام
يوسف ابن أبي بكر بن أحمد الحنبلي المقدسي الأزهري رحمه الله تعالى آمين
الحمد لله الرحيم الرحمن الحليم المنان، الملك الديان،
القاهر سلطانه كل سلطان، الممنوح إحسانه لكل إنسان، يؤتي
الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء
لا إله إلا هو كل يوم هو في شأن، والصلاة والسلام على سيدنا
محمد المبعوث من أشرف قحطان وعدنان، والمرسل إلى الإنس
والجان، الحائز إمامة الخلافة والملك والرفعة والشأن، وعلى آله
وأصحابه وخلفائه أبي بكر وعمر وعلي وعثمان، ما اصطفت
الصفوف وبرقت السيوف ولمعت السنان، وقام الكفاح،
وتلاطم الرماح، وخفقت رايات آل عثمان يوم حرب وطعان
وبعد فهذه مفاخر يلذ بمعانيها معانيها، ومآثر
يطرب بما فيها مآثر فيها، تتحفك بالأخبار العجيبة، وتوقفك
على الأسرار الغريبة، وتجلو عليك من الخرائد الحسان أوجها
وتدني إليك من الفوائد شموساً طالما سما بها أوجها، ذكرت
فيها مفاخر سلاطين آل عثمان ومآثر سلاطين من فاقوا بني
ساسان، الوارثين الخلافة والملك سلاطين العرب والعجم والروم

مكتبة الخزانة الملكية بالمغرب (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
ونصر من الله وفتح قريب
قال العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي
أحد الفقراء المجاورين بالجامع الأزهر
حمداً لك اللهم مجيب الدعوات، ومقيل العثرات، وكاشف
الكربات، ومولي الغفران، وشكراً لك على ما أوليت ووالبت من
نعم مترادفات، ومنح متكاثفات، ومنن متراكمات على كل عبد
وجان من إنس وجان، سبحانه ما أعظم شانه، وأجزل إحسانه
على أولاه وعالاه من فواضل العدل وسوابغ الامتنان، لم يزل
رحيماً رحمن، حليماً منان، مليكاً ديان، قاهراً سلطانه كل سلطان
ممنوحاً إحسانه لكل إنسان، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن

مكتبة شستربتي (ش)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة التحقيق

باسم الله، الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسول الله، وعلى آله وصحبِه ومَن والاه.

وبعدُ:

فهذا كتابٌ مهمٌّ شأنُه، رفيعٌ مكانُه، يَحكي لنا ماضيًا بعيدًا، وتاريخًا مَجيدًا، صاغه فقيهٌ كبيرٌ إمام، ولم يقصَّه علينا حاقدٌ أو حاسدٌ مِن أحد العوام!

قضيتُ نحوًا مِن عشرينَ سنةً وأنا أبحث في تاريخ الدولة العثمانيَّة، مِن مصادر مُؤيِّدِيها ومُعارِضِيها، وجمعتُ حولَ ذلك مراجعَ كثيرة بعدَّةِ لغات، وطفتُ بفضل الله غالبَ المُدن التركية، واطلعتُ على كثيرٍ مِن حضارة العثمانيين ومُشيَّداتِهم، ويومًا بعدَ يوم لا ينقضي عجبي من شدَّة الافتراءِ والتزويرِ الذي وقع على الدولة العثمانيَّة.

ولا يَنقضي عجبي أيضًا كيف يترك العاقلُ - بَلْه المسلمَ - كلامَ الأئمَّةِ المُؤرِّخين، وينقاد لكلامِ قوميٍّ أو كاتبٍ بعيدٍ عن الدِّين؟!

مع ما عُرف عندَ المُشتغلينَ بالتاريخ مِن كثرةِ التحريفِ والتزييف، الذي وقع على الدولة العثمانيَّة، والدسِّ الفظيعِ الذي وقع على سلاطينهم وخلفائهم.

ويُمكنني هنا الإتيانُ بشاهدٍ واحدٍ ومثال، يُلخِّص لنا كثيرًا مما كِيد ضدَّ آلِ

عثمان، وما خَفي أعظم وأَشدُّ، فلا زالت الحقائقُ تتكشَّف ويتَّضِح التاريخُ الأَسَدُّ:

فهذا هو السياسيُّ البريطانيُّ مَرْمَدُوك بِكْتال (ت١٩٣٦م) رحمه الله تعالى، يتبرَّأ مما كان فيه ويُعلن إسلامَه، ويُترجم معاني القرآنِ الكريم للغة الإنكليزية، لتصيرَ ترجمتُه مِن أوائل الترجمات الصحيحة لمعاني القرآن الكريم، لكنك تقفُ مُتعجِّبًا عندما تعلم: أنَّ من أسباب إسلامِه كثرةَ ما رآه في بني قومِه مِن التزوير والدسِّ في تاريخ الدولة العثمانيَّة[1].

وانظر إلى بعضِ ما قاله أئمتُنا السابقونَ عن الدولة العثمانيَّةِ وسلاطينِها على سبيل المثال:

ـ قال الحافظ المؤرِّخ شمسُ الدِّينِ السخاويُّ (ت٩٠٢) [2]: «وكلُّهم مِن خيار مُلوك الدنيا، ومِن محاسن الزمان، وسياجٌ للإسلام قديمًا وحديثًا».

ـ وقال الإمام ابنُ حجرٍ الهيتميُّ (ت٩٧٤) [3] خلالَ كلامِه عن السلطان سليمانَ القانوني: «انفرد هو وجميعُ آبائِه الأكرمِين، مِن بين سائرِ المُلوك والسلاطين، ألا يُبرموا أمرًا إلا بعدَ مُشاورَةِ العلماء العاملِين».

ـ وقال نجمُ الدِّينِ الغزيُّ (ت١٠٦١) [4]: «بيتٌ رَفع الله على قواعده فُسطاطَ السَّلْطنةِ الإسلامية، وقومٌ أَبرز الله تعالى لهم ما ادَّخره مِن الاستيلاء على المدائن

---

(١) انظر كتابَ «مَرْمَدُوك بِكْتال مسلم بريطاني» ترجمة أحمد الغامدي، وروايةَ «أبناءِ النيل» لمَرْمَدُوك بكتال ـ ترجمة سمير محفوظ، و«الموسوعةَ الإسلاميَّة التركيَّة» (٣٤/ ٢٧٠).

(٢) «الضوء اللامع» (١١/ ١٤٨).

(٣) «المناهل العذبة» (ص٢٤).

(٤) «الكواكب السائرة» (١/ ٢٠٩).

الإيمانية، فرَفعوا عمادَ الإسلام وأَعلوا منارَه، وتَواصَوا باتباع السُّنةِ المطهَّرة وعَرفوا للشرع الشريف مِقدارَه»، ونَقَله عنه ابنُ العمادِ الحنبلي (ت١٠٨٩)[١].

ـ قال الإمامُ مَرْعيٌّ الكَرْميُّ الحنبليُّ (ت١٠٣٣) في كتابنا هذا: «ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ: حُسنُ العقيدَة، وارتكابُ الطريقةِ الناجيةِ الحميدَة، جارينَ على سَننِ مذهبِ أهل السُّنةِ والجماعة»، وقال نحوَه أيضًا شهابُ الدِّينِ أحمدُ بنُ محمدٍ الحمويُّ الحنفيُّ[٢] (ت١٠٩٨هـ)، ومُدرِّسُ المسجدِ النبويِّ العلامةُ عبدُ القادر شَلَبي[٣].

ـ وقال المؤرِّخ الجَبَرْتيُّ (ت١٢٣٧)[٤]: «ولم تَزل البلادُ مُنتظِمةً في سِلْكهم، ومُنقادةً تحتَ حُكمِهم، مِن ذلك الأوانِ الذي استَولَوا عليها فيه إلى هذا الوقت الذي نحن فيه، وكانوا في صدر دَولتهم مِن خير مَن تقلَّد أُمورَ الأُمة بعدَ الخلفاء المَهديِّين، وأشدِّ مَن ذبَّ عن الدِّين، وأَعظمِ مَن جاهد في المشركين؛ فلذلك اتسعتْ ممالكُهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نُوابهم، ومَلَكوا أحسنَ المَعمُور مِن الأرض، ودانتْ لهم الممالكُ في الطُّول والعرض، هذا مع عدم إغفالهم الأمرَ وحفظَ النواحي والثُّغور، وإقامةِ الشعائر الإسلاميَّة، والسُّننِ المحمديَّة، وتعظيمِ العلماء وأهلِ الدِّين، وخدمةِ الحرمَين الشريفَين، والتمسُّكِ في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، فتحصَّنتْ دَولتهم، وطالتْ مُدَّتُهم، وهابتْهم المُلوك، وانقادَ لهم المالكُ والمَمْلوك».

(١) «شذرات الذهب» (١٠/ ١٩٨).

(٢) «فضائل سلاطين بني عثمان» (ص١٢٢).

(٣) «الدُّرر الحسان في فضائل سلاطينِ آل عثمان» (ص٣٢).

(٤) «عجائب الآثار» (١/ ٣٧).

ـ وقال مفتي الشام العلامةُ محمود أفندي الحمزاويُّ (ت١٣٠٥هـ) (١): «إنَّ الله تعالى قد أيَّد الإسلامَ وأهلَه مِن أكثر مِن ستِّمائة سنةٍ بمُلوكِ بني عثمانَ العظامِ، وخصَّهم بمزايا ومنحهم عطايا، فمِن أعظمها مِنحةً مَشكورةً وعطيَّةً مَشهورةً: عراقتُهم وأصالتُهم في السَّلْطنة والمُلْك، حيث قد مَلَك منهم إلى الآن أربعةٌ وثلاثون ملكًا، كلُّ واحدٍ منهم مَلِكٌ ابن مَلِكٍ على نسقٍ واحدٍ، لم يُعلم في الإسلام ولا في الجاهلية مُلوكٌ بهذه المثابة، وهو أمرٌ عجيبٌ، واتفاقٌ غريبٌ، إلى غير ذلك مِن الفضائل».

فأنت ترى كيف شهد هؤلاء بما رأَوا وشاهدُوا، فدعْ عنك قومًا بظنِّهم حَكموا وكَتبوا!

وهذا الكتابُ الذي بينَ أيدِينا هو لأحدِ كبارِ علماءِ الحنابلة، بل لإمامٍ مُحقِّقٍ مِن كبار فُقهائها، وتكمُن أهميَّةُ الكتابِ بعدَّة نُقاطٍ منها:

ـ أنه عاصر أحداثًا مهمَّة قلَّ مَن تكلَّم عليها بدقَّة، مثلَ: عزلِ السلطان مصطفى، وجهادِ السلطان عثمان الثاني.

ـ أنه تكلَّم بتأصيلٍ فقهيٍّ لبعض المسائل الشائكةِ في تاريخ الدولة العثمانيَّة.

ـ أنَّ المؤلِّفَ إمامٌ فقيه، فليس مدحُه جزافًا، ولا رأيُه اعتباطًا، فعلى العاقل المُنصِفِ أنْ يقرأَ بنيَّة الانتفاع والاستفادة.

وقد اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على ثلاث نسخ خطية هي:

النسخة الأولى: نسخة مكتبة شستربتي بإيرلندا، ويَغلب على الظنِّ أنها بخطِّ

---

(١) «البرهان» (ص٢).

المُؤلِّف فرغ منها عام: (١٠٣١)، وفيها زياداتٌ ليستْ في غيرها، ولعلَّ هذه النسخةَ هي الإبرازةُ الثانيةُ للكتاب؛ إذ تاريخُ انتهاءِ التأليفِ فيها متأخِّرٌ عما جاء في غيرها مِن النُّسخ، وجاء في اللوحة الأُولى منها: «رَقَمه بخطه مصنِّفُه الفقير، ورَسمَه بنفسه مؤلِّفُه الحقير، برسم سيِّدِنا أعزِّ خواصِّ الحضرةِ السُّلطانية، وأجلِّ جلساءِ الصَّفوةِ الخاقانيَّة، مُعتَمدِ السلاطينِ الكرام، ومُؤتَمَنِ الخواقين العِظام الفِخام، مولانا سليمان آغا، لا زال صاحبَ أسرارِ المُلوك، ساحبَ أذيالِ القَبول في مراتب السُّلوك، مَقبولَ سلطانِ الزمان، مأمونَ إسكندر العصرِ والأوان، آمين آمين»، **ورمزت لها بـ**(ش).

النسخة الثانية: نسخةُ مكتبةِ الخزانة الملكيَّة بالمغرب، مُمتلكات العلامةِ السيِّدِ عبدِ الحيِّ الكتانيِّ رحمه الله، نُسختْ عامَ: (١١١٧)، وقد نسخها عبدُ الرحيم بنُ مَرْعي بنِ يوسفَ بنِ يحيى بنِ يوسفَ بنِ أبي بكرٍ الكَرْميُّ، ويحيى هذا المذكورُ هو شقيقُ المؤلِّف الإمامِ مَرْعي، **وقد رمزتُ لها بـ**: (ب).

النسخة الثالثة: نسخةُ مكتبةِ أسعد أفندي بتركيا، نُسختْ عامَ: (١١٤٣)، **وقد رمزتُ لها بـ**: (أ).

ومِن النُّسخ التي وقفتُ عليها واستعنتُ بها:

ـ نسخةُ مكتبةِ جامعةِ فيينّا بالنِّمسا، تحتَ رقم: (٩٧٩).

ـ نسخةُ مكتبةِ باريس الوطنيَّة بفرنسا، تحتَ رقم: (١٦٢٤). وهي بخطِّ محمد يعقوب بنِ محمدِ بنِ يحيى بنِ يوسفَ الكَرْمي، وهو قريبُ المؤلِّف، فيحيى المذكورُ هو شقيقُ المؤلِّف.

وقد جاء على طرَّتها:

إنْ رُمتَ عيبًا فلا تَعجلْ بسبِّكَ لي   إني امرؤٌ لستُ معصومًا مِن الزَّللِ

ـ نسخةُ مكتبةِ نور عثمانيَّة بتركيا، تحتَ رقم: (٦٠٩)، وهي أيضًا بخطِّ محمد يعقوب بنِ محمدِ الكَرْميِّ قريبِ المؤلِّف.

ـ وكذلك فقد عثرتُ على نسخةٍ خطيةٍ مِن هذا الكتاب مترجمًا إلى اللغة العثمانية، وهي في مكتبة نور عثمانية برقم: (٣٤٠٤).

هذا، وقد حاولتُ جاهدًا الرجوعَ لمصادر المؤلِّف الحديثيَّةِ والفقهيَّةِ والتاريخية وغيرِها، سواءٌ كان ذلك في عِداد المطبوعات أو المخطوطات، واستعنتُ بذلك على إثبات نصٍّ توخَّيتُ فيه الصحَّةَ قدرَ الاستطاعة.

ـ وعَمَدت مِن خلال علاماتِ الضَّبطِ والترقيم ألا أُخِلَّ بالسَّجع الذي نحاه المؤلِّفُ وقصده، وبذلك تحلو قراءةُ الكتاب وتَطرَب الأذنُ بسماعه.

ـ وربطت بينَ الأسماءِ القديمةِ والمُعاصرة لأسماء المُدن والبلدان التي وَرَدتْ في الكتاب، وكَتبتُ بعضَها بالحُروف اللاتينية تسهيلًا للرُّجوع إليها، وتعيينِها على الخرائط المعاصرة.

هذا وإني أَطلب مِن الله التوفيقَ والسَّداد، وأَرجو مِن أهل العلم وطلبتِه إرشادي لأيِّ ملاحظةٍ أو تنبيه، ولهم مني خالصُ الدعاء، ومِن الله الثوابُ والجزاء.

المحقق

***

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾

قال العبد الفقير إلى الله تعالى مَرْعيُّ بنُ يوسفَ الحنبليُّ المقدسيُّ أحدُ الفقراء المُجاورِينَ بالجامع الأزهر:

حمدًا لك اللهمَّ مُجيبَ الدعوات، ومُقيلَ العثرات، وكاشفَ الكُربات، ومُولي الغُفران...

وشكرًا لك على ما أَوليتَ وواليتَ مِن نِعمٍ مُترادفات، ومِنحٍ مُتكاثِفات، ومِننٍ مُتراكمات، على كلِّ برٍّ وجان، مِن إنسٍ وجان.

فسبحانَه ما أعظم شانَه، وأجزلَ إحسانَه؛ لِما أَولاه ووالاه، مِن فواصِل العَدل وسوابغِ الامتنان.

لم يزل رحيمًا رحمان، حليمًا منّان، مَليكًا ديان، قاهرًا سلطانُه كلَّ سلطان، مَمنُوحًا إحسانُه لكلِّ إنسان.

يُؤتي المُلْكَ مَن يشاء، ويَنزِع المُلكَ ممن يشاء، ويُعزُّ مَن يشاء، ويُذلُّ مَن يشاء، لا إله إلا هو كلَّ يومٍ هو في شان[1].

---

(١) جاءت المقدِّمةُ في (أ) و(ب) وغيرِها: «الحمدُ للهِ الرَّحيمِ الرحمن، الحليمِ المنّان، المَلِكِ الديّان، القاهرِ سلطانُه كلَّ سلطان، المَمْنوحِ إحسانُه لكلِّ إنسان، يُؤتي المُلْكَ مَن يشاءُ، ويُعزُّ مَن يشاءُ، لا إله إلا هو كلَّ يومٍ هو في شان».

والصلاةُ والسلامُ على المبعوثِ مِن أشرَفِ قحطانَ وعدنان، والمرسَلِ إلى الإنسِ والجان، الحائزِ أُمَّتُه الخلافةَ والمُلْكَ والرِّفعةَ والشان.

وعلى آله وأصحابِه وخلفائِه أبي بكرٍ وعمرَ وعليٍّ وعثمان، ما اصطفَّتِ الصُّفوفُ وبرَقَت السِّيوفُ ولمعَت السِّنان، وقامَ الكِفاحُ وتلاطمَ الرِّماحُ وخفقَت راياتُ آلِ عثمانَ، يومَ حربٍ وطِعان.

وبعدُ:

فهذه مفاخرُ يلَذُّ بمَعانِيها مُعانِيها[1]، ومآثرُ يَطمئنُّ بما فيها مُوافِيها، تُتحِفُك بالأخبارِ العَجيبة، وتُوقِفُكَ على الأسرارِ الغَريبة، وتَجلو عليكَ مِن الخرائدِ[2] الحسانِ أَوجُها، وتُدني إليكَ مِن الفوائدِ شُموسًا طالما سما بها أَوجُها[3].

ذَكرتُ فيها مفاخِرَ سلاطينِ آلِ عثمان، ومآثرَ أساطينِ مَن فاقوا بني ساسان، الوارِثينَ الخلافةَ والمُلْك، سلاطينِ العربِ والعَجمِ والرُّومِ والتُّرك، على أسلوبٍ حسَنٍ، ومِنوالٍ يُستَحسَن، وستَقَرُّ به بعدَ التأمُّلِ العَينان، وليس الخَبرُ كالعِيان.

وعُذْرِي في هذا التصنيفِ واضحٌ، والعارِفُ بالحالِ مُغتفِرٌ مسامِح.

وأيضًا فلم أُسبَق[4] إلى ذلك بمؤلَّفٍ، ولم أظفَرْ في شأنِ ذلكَ بمصنَّفٍ، ولا خِلٌّ مُسعِفٌ ولا مُوادّ، ولا كُتبَ عندي ولا مَواد، وأنا الفاتحُ فيما أظنُّ لهذا الباب، والرافعُ لذلكَ النِّقاب.

---

(١) أي: مَن تعب لتَحصيلِها.

(٢) الأصل في الخريدة هي: الجاريةُ الحيية التي لم تُمس ولم تُعرف، فيُشبِّهون الفوائدَ الخفيَّة بها.

(٣) الأوج: العلوُّ، والمرتبةُ العالية، انظر: «معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ١٣٧).

(٤) في (أ) و(ب): «لأني لم أُسبق».

وكأني بمَن يأتي بعدِي فيَضعُ له تأليفًا على منوالِه، وتصنيفًا على شكلِ مِثالِه، ويَزيدُ على ما يُريد بعدَ معرفةِ الطريقِ، لا سيَّما إنْ كان خاليًا مِن التعويق، ويَنسى المثَلَ السائرَ في قول القائل[١]:

ولـو قَبـلَ مَبكاهـا بكَيْـتُ صبابـةً إذًا لشَـفيتُ النَّفـسَ قبـلَ التنَـدُّمِ
ولكـنْ بكَـتْ قَبـلي فهَيَّـج لي البُـكا بُكاهـا فقلـتُ: الفَضْـلُ للمُتقَـدِّمِ

وسمَّيتُه:

«قلائدَ العِقيان في فضائلِ آلِ عثمان»

خدمتُ[٢] به حضرةَ سيدِنا فخرِ النُّدماء المُقرَّبين، وشرفِ الأعزاء المُكرَّمِين، ومُؤتَمنِ المُلوك والسلاطين، نُورِ حَدَقةِ الوُجود، ونَورِ[٣] حَدِيقة الجُود، دُرَّةِ إكليل الدولة الزاهِرة، وغُرَّةِ جبينِ السعادة الباهِرة، صاحبِ إفضال الخيرات، ساحبِ أذيالِ المبرّاتِ والصدقات، ما علم أحدٌ أنَّ جُودَه عن أحدٍ احتجب، وهو البحرُ فحدِّثْ عنه ولا عَجب، لا وسيلةَ إلى فِطان شيمِه، ولا حاجبَ لدَيه إلا لسانُ كرمِه...

كيف لا؟! وقد أُوتي مِن الجُود ما طَوى به أحاديثَ الكُرما، وأَنسى كعبَ بنَ مامةَ[٤] وابنَ ماءِ السَّما[٥]، وهو كسيلٍ تدفَّق مِن غير سَما.

تعـوَّد بسـطَ الكـفِّ حتـى لـوَ انَّـه أراد انـقـبـاضًـا لـم تُطعْـه أناملُـه

---

(١) البيتانِ لعديِّ بنِ الرِّقاع العامِلي، انظر: «ديوانه» (ص٢٦٦).

(٢) مِن هنا إلى قوله: «مقدِّمة في فضل السلطان» ليس موجودًا في (أ) و(ب).

(٣) النَّور: الزَّهْر.

(٤) كعب بن مامَة الإيادي، جاهلي يُضرب به المثلُ في الكَرَم، انظر: «الأعلام» (٥/ ٢٢٩).

(٥) هو عامر بنُ حارثَةَ الأزدي، يُلقَّب بماء السماء لجوده، انظر: «الأعلام» (٣/ ٢٥٠).

ولـو لـم يكـن فـي كفِّـه غيـرُ نفسِه   لـجـاد بــها فليتَّـقِ اللـه سـائلُه[١]

مولانا سليمان آغا[٢] دارِ السَّلْطنة والسعادة، واليُمنِ والسِّيادة، الدارِ التي لثمتْ ترابَ أعتابها أفواهُ الفراعنة والجبابرة، وخَضعتْ لدى أبوابِها أعناقُ الأكاسرة والقياصرة، وإني وإنْ كنتُ لم أُشاهد طلعتَه اللطيفة، ولم أَصِلْ إلى حضرته الشريفة، لكن الصفاتُ العاطرة، والمناقبُ الزاهرة، إذا مرَّتْ نسماتُها على الأسماع، هَيَّجت القلوبَ طربًا بالسماع، وحرَّكت الأقلامَ إلى رسم الأرقام.

ويُستدَلُّ على علوِّ كمالِه، وسُموِّ إفضالِه، بكمال المَنسوبِين إليه، وجلالِ المُقرَّبينَ لدَيه، وجمالِ أوصاف مَن أكثر مِن عشرته والاجتماعِ عليه، لا سيما حضرةِ سيدِنا صاحبِ السعادة والإجلال، ساحبِ أذيال السيادة والإقبال، أعزِّ أُمراء الألوية السُّلْطانيَّة، وأجلِّ كبراءِ الصَّناجِق الخاقانيَّة[٣]، ودفتردارِ[٤] مَمْلكةِ[٥] الديار المصريَّة، صاحبِ السَّيفِ والقلم، والعِلم والعَلم، مَن شُكِرتْ في الدولة مساعيه الحسنة، واتفقتْ على جميل وصفِه الآراءُ والألسنة، وقامت الأدلَّةُ على وُجوب استحقاقِه، والبراهينُ على حُسن تصرُّفِه في إرفاده وإرفاقِه، ورُفعتْ رُتبةُ

(١) البيتانِ مِن قصيدةٍ لأبي تمام يمدح بها المعتصم، انظر: «شرح ديوان أبي تمام» (٢/ ١٥).

(٢) ورد ذِكرُه في «المنح الرحمانية» (ص٣٨٠).

(٣) الصَّناجِق: بمعنى حامل العلم، انظر: «تكملة المعاجم العربية» (٦/ ٤٧٠).
والخاقان: لقبٌ لكلِّ ملكٍ مِن مُلوك التُّرك، انظر: «المعجم الوسيط» (١/ ٢٤٨).

(٤) الدَّفتَرْدار: بمعنى مُمسك الدفتر، وهي مِن أرفع مناصب الشؤون المالية زمنَ الدولة العثمانية، يُعادلها في زماننا: (وزير المالية)، وانظر: «المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية» (ص١١٣).

(٥) في (ش): «المملكة».

سعدِه فأَضحى غُصنُ مجدِها مُزهِرًا، وعلتْ منزلتُه في مجدِ الارتقاء وإنا لنبغي فوقَ ذلك مَظهَرًا؛ حتى يصيرَ حامي حِمى الإسلام بالديار المصريَّة، ومشيِّدَ تُخوتِ العَدل بالأقطار اليُوسفيَّة، عالي المَقام والمِقدار، مولانا حسن أفندي قائمِ مقام ودفتردار[1]، أكملِ مَن اتصف بالعظمة والشان، وأفضلِ مَن يُنسب لسليمانَ الزمان.

ومِن حسنٍ تبدو المحاسنُ كلُّها وكم لسليمانِ الزمانِ مناقبُ

فكفى سليمانَ الزمانِ شرفًا نِسبةُ الحُسنِ إليه، وذلك مما يُستدلُّ بالكمال والجلال عليه.

جدَّدَ الله تعالى لدَولتِه القاهرةِ كتائبَ وجُنودًا، ولسطوته الباهرةِ التي إذا نُشرتْ كانت أعلامًا وبنودًا، وأمدَّها بمعرفته التي إذا عُدتْ كانت بحرًا ممدودًا، ولا زالتْ كواكبُ سعودِه زاهرةَ المطالع، ومواكبُ جُنودِه قاهرةَ الطلائع، آمين.

فأقول وبالله المستعان، ومنه أرجو العفوَ والغفران، لا أَرجو ولا ربَّ غيرُه، ولا مأمولَ إلّا خيرُه:

---

(١) وَرَد ذِكرُه في «المنح الرحمانية» (ص٣٥١).

مقدِّمةٌ في فضلِ السُّلطان

اعلَمْ أيَّدك الله تعالى: أنَّ وِلايةَ أُمورِ الناسِ مِن أعظَمِ واجباتِ الدِّينِ، بل لا قيامَ للدِّينِ والدُّنيا إلا بها، ولولاها لتعطَّلَتْ شرائعُ الدِّينِ، واختلَّ نظامُ المسلِمين، بلْ نظامُ العالمِ بسببِ فسادِ بني آدم.

ولذلك قدَّمَ الصحابةُ رضي الله عنهم أمرَها على دفنِ رسولِ اللهِ ﷺ، وتنازَعُوا وتشاوَروا في أمرِ الخلافة حتى وَقعَ الاتِّفاقُ على خلافةِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ تعالى عنه، فالقائمُ بها قائمٌ بأَعظمِ واجباتِ الدِّين، وأهمِّ مصالحِ المسلِمين.

رَوى أبو الشيخِ[1] عن أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي اللهُ تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «السُّلطانُ العادِلُ المتواضِعُ ظلُّ اللهِ ورحمَتُه في الأرضِ، يُرفَعُ له عملُ سبعينَ صدِّيقًا».

ورَوى البيهقيُّ[2] عن أنسٍ رضي اللهُ عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «السلطانُ ظلُّ اللهِ في الأرض، فمَن غشَّهُ ضلَّ، ومَن نصحَه اهتَدى».

ورَوى أبو الشيخِ[3] عن أنسٍ أيضًا عن النبيِّ ﷺ: «السلطانُ ظلُّ اللهِ في الأرضِ، فإذا دخلَ أحدُكم بلدًا ليس به سلطانٌ فلا يُقيمَنَّ به».

ورَوى ابنُ النجَّارِ[4] عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «السلطانُ

---

(١) عزاه في «الجامع الصغير» لأبي الشيخ، وحكم عليه في «المُدواي» (٤/ ٢٧٠) بأنه باطلٌ منكرٌ، وفي «العلل» لابن أبي حاتمٍ (٦/ ٥٩١): «قال أبو زرعة: هذا حديثٌ منكر».

(٢) «شعب الإيمان» (٩/ ٤٨١) عن أنس موقوفًا، وهو موضوعٌ.

(٣) كذا في «الجامع الصغير» وفيه ضعفٌ، انظر: «فيض القدير» (٤/ ١٤٣).

(٤) «ذيل تاريخ بغداد» (٢/ ١٠٦) وفيه نكارةٌ وضعفٌ، وأما قولُه: «ومَن أكرم سلطانَ الله إلخ» فرواه =

ظلُّ اللهِ في الأرضِ، يأوي إليه الضعيفُ، وبه يَنتصِرُ المظلومُ، ومَن أكرمَ سلطانَ اللهِ في الدنيا أكرمَه اللهُ يومَ القيامةِ».

ورَوى البيهقيُّ[1] عن ابنِ عمرَ رضي اللهُ عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «السلطانُ ظلُّ اللهِ في الأرضِ، يأوي إليهِ كلُّ مظلومٍ مِن عبادِه، فإنْ عدلَ كان له الأجرُ، وكان على الرَّعيَّةِ الشُّكرُ، وإنْ جارَ أو خانَ أو ظلَمَ، كان عليه الوِزرُ، وكان على الرَّعيَّةِ الصبرُ».

ويُقال: «ستونَ سَنةً مِن إمامٍ جائرٍ أَصْلحُ مِن ليلةٍ واحدةٍ بلا سُلطانٍ»[2].

ولهذا كان السلفُ الصالحُ كالفُضيلِ بنِ عياضٍ والإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ وغيرِهما يقولون[3]: «لو كان لنا دعوةٌ مُستجابةٌ لدَعونا بها للسلطان؛ لأنَّ في صلاحِه صلاحَ المسلِمين».

أَصلَحَ اللهُ حالَ سلطانِنا وسائرَ سلاطينِ المسلِمين، وجعلهم لأَمره منقادِين، وتحتَ طاعتِه داخلين، ولأَوامرِه ومراسمِه مُستسلِمين، آمين.

إذا تقرَّرَ هذا فلنشرعْ في المُراد، وعلى الله الهدايةُ إلى سبيل الرَّشاد.

اعلَم أيَّدكَ الله تعالى: أنَّ سلاطينَ آلِ عثمانَ وفخرَ مُلوكِ الزمانِ، لهم

= أحمدُ عن أبي بكرةَ في «المسند» (٣٤/ ٧٩) وفيه ضعفٌ.

(١) «شعب الإيمان» (٩/ ٤٧٦) وقال عقبَه: «سعيدُ بنُ سنانٍ ضعيفٌ عندَ أهلِ العلم بالحديث»، واتهمه بعضُ الحفاظِ بالوضع، ورواه البزار في «مسنده» (١٢/ ١٧)، وقال في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٦): «رواه البزارُ وفيه: سعيدُ بنُ سنانٍ، وهو متروكٌ».

(٢) ذكره هكذا ابنُ تيميةَ، انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٩١).

(٣) انظر: «حلية الأولياء»: ٨/ ٩١، و«مجموعَ الفتاوى» لابن تيمية: (٢٨/ ٣٩١).

فضائلُ عديدةٌ، وخصالٌ حَميدةٌ، وقوانينُ عَجيبةٌ، وسياساتٌ غَريبةٌ، في غايةِ النظامِ ونهايةِ المَرام، وفضائلُهم أشهرُ مِن أنْ تُذكَر، وأكثرُ مِن أنْ تُحصَر.

وهم أجلُّ مُلوكِ الدُّنيا على الإطلاقِ وأكبر، وأفضَلُهم في سُبل الخيراتِ وأَكثر، وخصائلُهم لا تُنكر، وفضائلُهم لا تُستنكَر، ومفاخِرُهم أَسنى مِن الشمسِ والقمر.

* * *

[أصلُ آلِ عثمانَ ونسبُهم]

فمِن مفاخرِ سلاطينِ بني[1] عثمانَ المشكورَة، ومآثِرهم المشهورَة:

العراقَةُ في السَّلْطنةِ والمُلْك، والشرفُ في الحسَبِ والنسَب؛ فإنَّ جدَّهُم عثمانَ الأعلى: هو عثمانُ الغازي بنُ أَرْطُغْرُل بنِ سليمان شاه.

وسليمانُ شاه[2] هذا كان سلطانًا بالمشرقِ في بلاد ماهان[3] قريبًا من مدينةِ بَلْخٍ[4].

وأصلُه مِن التُّركمانِ[5] الرحَّالةِ النزَّالةِ مِن طائفة التتار.

ويتَّصِلُ نسبُه إلى يافثَ بنِ نوحٍ عليهِ السلام[6]، ....

---

(١) ستتكرَّر هذه العبارةُ إلى آخر الكتاب، وقد جاءتْ في (أ) و(ب): «آل عثمان».

(٢) شاه معناه: مَلِك، ولكنه إذا جاء بعدَ الاسمِ فإنه يعني السيِّد، كما أنَّ مُسلِمي الهند وباكستان يُطلقونه على أولاد فاطمةَ للتعظيم، نقلتُه مِن هوامش «تاريخ الدولة العلية العثمانية» (ص١١٥).

(٣) جاء في «نهر الذهب» للغزي (١/ ٣٧٦): «وفي سنة: ٦١١ كان السلطان سليمانُ شاه جدُّ الأُسرة العثمانية قد فارق بلادَ ماهان، جافلًا مِن التتار هو ومَن معه مقبلًا إلى السلجوقية؛ ليتوطَّنَ في بلادها، فقصد جهةَ حلب مِن ألبستان هو ومَن معه، فوَصلوا إلى نهر الفرات أمامَ قلعة جَعْبر، ولم يَعلموا المعْبرَ فعبروا النهرَ فغلب عليهم الماءُ فغرق سليمانُ شاه، فأخرجوه ودَفنوه عندَ القلعة».

(٤) مدينة بَلْخ: تقع الآنَ في شمال جمهوريةِ أفغانستان.

(٥) التُّرْكُمان: جيلٌ مِن التُّرك، سُمُّوا به لأنه آمن منهم مئتا ألفٍ في شهرٍ واحد، فقالوا: تُرْكُ إيمانٍ، ثم خُفِّف فقيل: تُرْكُمان، كذا في «القاموس المحيط» (ص١٠٨٢).

(٦) وساق هذا النسبَ صاحبُ «أطلس تاريخ الدولة العثمانية» (ص٧٤)، إلا أنَّ المؤرِّخَ الدكتور أحمد آقْ كُونْدُوز يرى هذا مِن الأساطير الشعبية، انظر: «الدولة العثمانية المجهولة» (ص٤٩)، والله أعلم.

كذا قال الشيخُ القُطْبيُّ(١) صاحبُ «تاريخ مكة»(٢).

وقال(٣): «إنه لما ظَهر جنكيز خانُ وأَخربَ بلادَ بلخٍ، خَرج سليمانُ شاه بخمسينَ ألفَ بيتٍ إلى أرضِ الرُّومِ فغرِقَ بالفرات(٤).

فدَخلَ ولدُه أَرْطُغْرُلُ أرضَ الرُّوم، فأَكرَمه سلطانُها السلطانُ علاءُ الدِّينِ السلجوقِيُّ سلطانُ الرُّوم(٥).

فلما ماتَ أَرْطُغْرُلُ خلَّفَ أولادًا أمجادًا(٦)، وفُرسانًا جِيادًا(٧)، وكان أشدُّهُم بأسًا، وأعلاهُم همَّةً ومِراسًا: عثمان، فنشأَ مُولَعًا بالقتال، والطَّعْنِ والنِّزال، والجهادِ في أهل الكفر والضَّلال.

فلما أَعجَبَ السلطانَ علاءَ الدِّين السَّلْجوقيَّ ذلك منه(٨)، أَرسلَ إليه الرّايةَ

---

(١) تحرَّفتْ في بعض النسخ إلى: «القرطبي»! والقُطْبيُّ: هو الفقيه المؤرِّخ قطبُ الدِّينِ محمدُ بنُ أحمدَ النَّهروالي (ت٩٨٨)، انظر: «الأعلام» (٦/ ٦).

(٢) «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» (ص٢٦٤).

(٣) «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» (ص٢٦٥).

(٤) الذي في «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» (ص٢٦٥): «فغَرِق بفرسه».

(٥) وكان سببُ إكرامِ السلطان علاءِ الدين لأَرْطُغرلَ مساعدتَه له في أحد معاركه، وانتصارُ السلاجقة بعدَ ذلك.

(٦) تَذكر المصادرُ ثلاثةَ أولادٍ لأَرْطُغْرُل: كُونْدُوز، وصاري باطي أو صاوْجِي بِك، وعثمان.

وقد أكرم الله الأخَوينِ الأوَّلينِ بالشهادة في الحُروب مع الصليبيِّين، انظر: «الدولة العثمانية» لأُوزْتُونا: (١/ ٩٢).

وكُونْدُوز معناه: النهار، وصاري: الأصفر، وباطي: الرَّجل القوي، وصاوجي: المُبشِّر.

(٧) «فرسانًا جيادًا» مِن النسخة: (ش) فقط، وليست في «الإعلام».

(٨) تنبيه: مرَّ معنا علاقةُ السلطانِ علاءِ الدِّين السَّلْجوقيِّ بالقائد أَرْطُغْرُل، ثم جاء هنا علاقةُ السلطانِ =

السُّلطانيَّة والطَّبَلَ والزَّمْر، فلمّا وَصلَت النَّوبةُ إليه، وضُرِبتْ بينَ يديه، قامَ تعظيمًا على قدمَيه، فصارَ قانونًا مستمِرًّا لآلِ عثمانَ إلى الآن، يقومونَ عندَ ضربِ النَّوبة.

ثم بعدَ ذلك تمكَّنَ عثمانُ مِن السَّلْطنةِ وافتتحَ مِن الكفَّارِ عدَّةَ قلاعٍ وحُصون[1]».

وقال صاحبُ[2] كتابِ «دُررِ الأثمانِ في أصلِ مَنبعِ آلِ عُثمان»[3]: «إنَّ أصلَهم مِن صميمِ عربِ الحجازِ»[4].

= علاءِ الدين السَّلْجوقيِّ مع عثمانَ بنِ أَرْطُغْرُل، ومِن خلال مراجعةِ كُتب التواريخ وتحديدِ العلاقةِ بالتاريخ اتضح ما يلي:

- السلطان علاء الدين السَّلْجوقي الذي كانتْ علاقتُه بأَرْطُغْرل مِن خلال معركة (ياسي جِمن) التي وقعت عامَ: (٦٢٧) هو علاءُ الدينِ كيقُباذُ بنُ كيخسرو بنِ قِلِج (ت٦٣٤)، انظر: ترجمتَه في «السير» (٢٣/ ٢٤).

- أما السلطانُ علاءُ الدينِ الذي سَلْطن عثمانَ بنَ أَرْطُغْرُل فهو علاءُ الدين كيقُباذ الثالث (ت٧٠١)، انظر: «أطلسَ التاريخِ العربي الإسلامي» (ص٢٢٢)، وهو أمرٌ مهمٌّ يَحسُن التنبيهُ له، والإشارةُ إليه.

(١) وصلتْ مِساحةُ الإمارةِ التي تركها عثمانُ بعد وفاتِه نحوًا مِن: ١٦٠٠٠كم٢، مع أنَّ تركتَه الشخصيةَ كانت عبارةً عن: قِطعةِ قُماشٍ كان يعتمُّ بها، وثوبٍ واحدٍ يَلْبسه، وحذاءٍ ومِسْبَحة، وسيفٍ ودِرْعٍ ورُمحٍ وخُرْجٍ لفرسِه، ومِرشَّةِ مِلْحٍ وأداةٍ لحَمْلِ مِلْعقتِه، وبعضِ الخيول وعدَّةِ خرافٍ كانت للضِّيفان. انظر: «تاريخَ الدولةِ العثمانيـة»: لأُوزْتونا (١/ ٦٢)، و«سلاطينَ الدولةِ العثمانيـة» لصالح كولن: (ص٨).

(٢) هو محمد بن أبي السُّرور محمد البكريُّ الصدِّيقي المصري (ت١٠٢٨)، انظر: «الأعلام» (٧/ ٦٢).

(٣) «دُرر الأثمان في منبع آل عثمان» (ق١٨/ ب)، وقد تمكَّنتُ مِن الرجوع إلى هذا النصِّ في مخطوطة الكتاب بمكتبة (جوتا) بألمانيا برقم: (١٦١٤)، عبرَ موقعِهم على الشبكة العنكبوتيَّة.

(٤) وهذا القولُ قد نقله مؤلِّفُ «درر الأثمان» (ق١٨/ أ) عن غيره، فقد قال قبلَ عبارتِه هذه: «وقد نقل الثقاتُ مِن المؤرِّخينَ كشيخ الإسلام ابنِ حجرٍ وغيرِه»، ثم ساقها. =

قال[١]: «وزادَ جماعةٌ مِن أهلِ التاريخِ: إنه مِن المدينةِ الشريفة[٢]، وإنَّ عثمانَ جدَّهم الأعلى هاجرَ مِن الحجازِ مِن الغلاءِ إلى بلاد قَرْمان[٣]، واتَّصلَ بأتباعِ سُلْطانِها في سنةِ: خمسينَ وستِّمئةٍ، وتزوَّجَ مِن مدينةِ قُونيا».

فتلخَّصَ مِن مجموعِ ما تقدَّم:

- أنَّ لهم عراقةً في السَّلْطنةِ والمُلْكِ مِن قبلِ دُخولِهم إلى بلاد الرُّوم.

- وأنَّ لهم عراقةً في الحسَبِ والنَّسبِ؛ إذ هم مِن العرَبِ، وخيرُ الناس العربُ كما ذكرتُ إيضاحَ ذلك في كتابي الذي سمَّيتُه: «العجب في فضل العرب وشرف العِلم على شرف النَّسب»[٤].

ورَوى الطبرانيُّ والبيهقيُّ وأبو نُعيمٍ[٥] عن ابنِ عمرَ رضي اللهُ عنه قال:

= وكلامُ الحافظ ابنِ حجرٍ هذا في كتابه «إنباء الغَمْر» (١/ ٤٨٤) ضمنَ ترجمتِه للسلطان مراد الأول، ونصُّه: «يقال: إنَّ أصلَهم مِن عرب الحجاز»، وكذلك نقل هذا القولَ المُؤرِّخُ المقريزيُّ في «درر العقود الفريدة» (١/ ٤٣٩)، والحافظُ السخاويُّ في «الضوء اللامع» (١١/ ١٤٨).
ويقول المؤرِّخُ الدكتور أحمد آقْ كُونْدُوز في «الدولة العثمانية المجهولة» (ص٤٩): «هذا لا يَملك قيمةً علمية».

(١) «درر الأثمان في منبع آل عثمان» (١٨/ ب) وما بعدَها.

(٢) وقال المؤرِّخ ابنُ إياس في «بدائع الزهور في وقائع الدهور» (٥/ ٣٦٤) عن عثمان: «إنَّ أصلَه مِن عرب الحجاز، مِن وادي الصفراء بالقُرب مِن المدينة النبوية»، ولا يثبتُ كما مرَّ.
ووداي الصفراء: بينَ المدينةِ وبدر، انظر: «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص١٥٩).

(٣) قربَ مدينة آفيون وكُوتاهية بتركية، انظر: «أطلس تاريخ الدولة العثمانية» (ص٦٨).

(٤) الرسالة عُرفت باسم: «مسبوك الذهب في فضل العرب، وشرف العلم على شرف النسب»، وهي مطبوعة ضمن هذا المجموع.

(٥) «المعجم الكبير» (١٢/ ٤٥٥)، «شعب الإيمان» (٣/ ١٥٨)، «دلائل النبوة» (١/ ٥٨)، وقال في =

قـال رسـولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ خلـقَ الخلْـقَ، فاختار مِـن الخلقِ بنـي آدم، واختارَ مِن بنـي آدمَ العـربَ، واختـارَ مِن العـربِ مُضرَ، واختـارَ مِن مضـرَ قُريشًـا، واختارَ مِن قريـشٍ بنـي هاشـمٍ، واختارَنـي مِن بنـي هاشـمٍ، فأنا مِن خيـارٍ إلـى خيارٍ».

وقـد تقـدَّم مِن كلام صاحـبِ «دُررِ الأثمان»: أنَّ سـلاطينَ بني عثمـانَ أصلُهم مِـن صميمِ عـربِ الحجازِ، فهـؤلاءِ القومُ الكرام، والسـلاطينُ الفخـام، قد جمعوا هِـزَّةَ[1] العـربِ إلـى عِـزَّة العَجـم، وضمُّـوا تهليلَ السـيفِ إلـى صريرِ القلـمِ، وملأ صيتُهـم الخافقَيـن بينَ جميـعِ الأُمم.

***

= «مجمع الزوائد» (٨/ ٢١٥): «رواه الطبرانيُّ وفيه: حمادُ بنُ واقدٍ وهو ضعيف يُعتبر به، وبقيَّةُ رجالِه وُثِّقوا»، وفي «العلل» (٦/ ٤٠٢) لابنِ أبي حاتم: «قال أبي: هذا حديثٌ منكر».

(١) الهِزَّة: بمعنى النَّشاط، كما في «القاموس المحيط» (ص٥٢٩).

[تعدادُ سلاطينِ آلِ عثمانَ إلى زمن المؤلِّف]

ومِن مفاخر سلاطين بني عثمانَ:

أنه قد وَلِي منهم السَّلْطنةَ خمسةَ عشرَ سُلطانًا[1]، كلُّ واحدٍ منهم ابنُ السلطان الذي قبلَه على نسقٍ واحدٍ، ولا أَعلمُ في الإسلامِ ـ بل ولا في الجاهليَّةِ ـ مُلوكًا بهذه المثابةِ، وهو أمرٌ عجيبٌ، واتِّفاقٌ غريبٌ لم يقَع لغيرِهم مِن المُلوك[2].

ولا يرِدُ مولانا السلطان مصطفى أكرمه الله تعالى، أخو مولانا المرحوم السلطانِ أحمدَ؛ لأنَّ مدَّتَه كانت قصيرةً نحوَ ثلاثةِ أشهرٍ، فكأنه لم يَلِ.

وها أنا أَذكرُ سلسلةَ نسبِهم الطاهر، وحسبِهم الفاخر:

فهذا[3] سلطانُ عصرِنا أعظمُ سلاطينِ الدنيا سطوةً وسلطانًا، وأفخرُ مُلوكِ الأرضِ عظمةً وشانًا، وأقواهم حجَّةً وبرهانًا، وأمضاهم سيفًا وسِنانًا، وأعلاهم مكانةً ومكانًا، حامي حمى الملَّة والدِّين، إمامُ الغزاةِ والمجاهدين، ناشرُ جناحِ العدلِ في العالمين، المُفتخِرُ على سلاطين الدنيا بفخامة مملكةٍ تردُّ الأبصار حَسْرى، وسريرِ سَلْطنةٍ إذا استوى عليه أحيا ذِكرَ السلفِ الصالح وأَمات ذِكرَ كسرى، وارثُ الخلافةِ

---

(١) هذا إلى زمن المؤلف رحمه الله تعالى، وإلا فقد حَكم منهم: (٣٦) سلطانًا، رحمهم الله تعالى.

(٢) وذَكر نحوَ ذلك مفتي الشام العلامةُ المفسِّر محمود أفندي الحمزاوي (ت١٣٠٥هـ) في رسالته «البرهان» (ص٢)، فإنه قال: «إنَّ الله تعالى قد أيَّد الإسلامَ وأهلَه مِن أكثر مِن ستمائة سنةٍ بمُلوكِ بني عثمانَ العظامِ، وخصَّهم بمزايا ومنحهم بعطايا، فمِن أعظمها منحةً مشكورةً وعطيةً مشهورةً: عراقتُهم وأصالتُهم في السَّلْطنة والمُلْك، حيث قد مَلَك منهم إلى الآن أربعةٌ وثلاثون ملكًا، كلُّ واحدٍ منهم مَلِكٌ ابن مَلِكٍ على نسقٍ واحدٍ، لم يُعلم في الإسلام ولا في الجاهلية مُلوكٌ بهذه المثابة، وهو أمرٌ عجيبٌ، واتفاقٌ غريبٌ، إلى غير ذلك مِن الفضائل».

(٣) مِن هنا إلى قوله: «مولانا السلطان عثمان...» زيادةٌ مِن (ش).

والمُلْك، سلطانُ العربِ والعجمِ والرُّومِ والتُّرك، مَن وَرِث المُلْكَ لا عن كَلاله، وأتاه يجرُّ أذيالَه، ولم يكُ يَصلح إلّا له، وهو الذي وجَّه عِنان العناية لحماية الإسلام بشهادة الإجماع، وتلك شهادةٌ صادقةٌ لا يَتطرَّق إليها النِّزاع، القائمُ بنفل الجهاد وفرضِه، الصادقُ عليه قولُه ﷺ: «السلطانُ ظلُّ الله في أرضه»، مَعدِنُ العدلِ والفضلِ واليُمنِ والأمان، المُمْتثِلُ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾:

مولانا السلطانُ عثمانُ ابنُ السلطانِ أحمدَ ابنِ السلطانِ محمدِ ابنِ السلطانِ مُرادِ ابنِ السلطانِ سَليمِ ابنِ السلطانِ سُليمانَ ابنِ السلطانِ سَليمٍ فاتحِ مصرَ والشامِ ابنِ السلطانِ بايزيدَ ابنِ السلطانِ محمدٍ أبو الفتوحاتِ فاتحِ القُسطنطينيَّةِ ابنِ السلطانِ مرادِ ابنِ السلطانِ محمدِ ابنِ السلطانِ يِلْدرِم بايزيدَ ابنِ السلطانِ مرادٍ الشهيدِ ابنِ السلطانِ أُورْخانَ ابنِ السلطانِ عثمانَ.

أولئـكَ آبائـي فجِئْنـي بمثْلِهـم إذا جمَعَتْنـا يـا جريـر المجامِـعُ[1]

شعر:

نَسَبٌ كستْه الشمسُ في وقتِ الضُّحى نـورًا ومِـن فَلَـقِ الصَّباحِ عَمُودا

مـا فيـه إلا سـيِّدٌ مِـن سَيِّـدٍ حاز المفاخِـرَ والعُـلا والجُـودا[2]

فهذا الاتِّفاقُ العجيبُ، على هذا الشكلِ الغريب، لم يتَّفِق لمُلوكٍ غيرِهم لا مِن بني أُميَّةَ ولا مِن بني العبَّاسِ، بل ولا مِن سائر مُلوكِ الناس، بل ولم يقعْ ما يقارِبُه إلّا ما وَقعَ لخلفاءِ مصرَ الفاطميين[3]، فإنه قد وَلِي منهم:

---

(١) البيتُ مِن قصيدةٍ للفرزدق، انظر: «ديوانه» (ص٣٦٠).

(٢) البيت الأول لأبي تمام انظر: «ديوانه» (١/ ٢٢٠)، وأنشد البيتَينِ الدميريُّ في «النجم الوهاج» (١/ ٢٠٩).

(٣) هذا في زمن المؤلف عامَ: (١٠٣٠هـ) رحمه الله، وإلاّ فسلاطينُ آلِ عثمان حكموا بعدَ ذلك =

الآمِرُ بأحكامِ الله بن المستعلِي بالله بن المستنصِرِ بالله بن الظاهِرِ لإعزازِ دينِ الله بن الحاكمِ بأمر الله المنسوبِ إليه جامعُ الحاكم بالقاهرة[1] بن العزيزِ بالله بن المعزِّ لدينِ الله بن المنصورِ بالله بن القائمِ بأمرِ الله بن المهديِّ بالله.

فهؤلاءِ كلُّ واحدٍ منهم ابنُ الذي قبلَه، فهذا مِن أكثر ما وَقعَ.

وقد زادَ عليهم سلاطينُ بني عثمان، وفاقُوهم في رِفعةِ القَدرِ والشان، بل ولا نسبةَ هناكَ كما بيَّنتُ حالَ هؤلاءِ في التاريخِ الذي سمَّيتُه: «نزهةَ الناظرينَ في تاريخِ مَن وليَ مصرَ مِن الخُلفاءِ والسلاطِينَ»، وسيأتي التنبيهُ على ذلك أيضًا.

***

= نحوًا مِن ثلاثةِ قرون.

(١) مِن أبرز معالم مصرَ اليوم، وأقدمِ مساجدها وأعظمِها، ويقع بمنطقة الجماليَّة بمدينة القاهرة.

[جلالةُ قدرِهم ومهابتُهم]

ومن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

وُقوعُ مَهابتِهم في قلوبِ الخَلْقِ، وجلالتِهم في صُدورِ الناسِ، خُصوصًا عساكرَهم وأجنادَهم.

فلا يتجرَّأُ أحدٌ يَسطو عليهم، ولا أنْ يَنظُرَ بعينِ الازدراء إليهم، بل هم على ممرِّ الأعصارِ مُعظَّمون، وعلى توالي الدُّهورِ مُهابونَ ومُبجَّلون.

خاضِعةٌ لهم صنادِيدُ الأكاسِرَة، وأعناقُ القياصِرَة، وعظماءُ الجبابرَة، وتلك مزيَّةٌ ظاهِرَة، ومرتبَةٌ فاخِرَة.

ولا يرِدُ قتلُ جدِّهم الأَعلى السلطانِ مرادٍ[1]: فإنهُ لما ضاقَ به الكفارُ ذرعًا بقتلِ مُلوكِهم، وتخريبِ بلادِهم، أَظهرَ واحدٌ مِن مُلوكِهم الطاعةَ له، وتقدَّمَ ليُقبِّلَ يدَه، فضَربَ السلطانَ بخَنجَرٍ كان في يدِه، فاستُشهِدَ رحمَه الله تعالى، بخلافِ غيرِهم، فإنَّ عساكرَهم تسطُو عليهم، وتُسرِعُ بالسُّوءِ إليهم.

***

وها أنا أَذكر طرفًا مِن ذلك مما وقعَ لسلاطينِ مصرَ على الترتيب:

ـ هذا أبو الجيشِ خُمارَوَيهْ بنُ أحمدَ بنِ طُولُون: سلطانُ مصرَ كان في غايةِ العظمةِ والشان، ونهايةِ العزَّةِ والسلطان، زوَّجَ بنتَه قطرَ النَّدى للخليفةِ المعتضِدِ العباسيِّ ببغدادَ، وجهَّزَها بجهازٍ لم يُرَ مثلُه.

---

(١) هو السلطان أبو الفتح مراد الأول بن أُورْخان (ت٧٩١هـ ـ ١٣٨٩م)، الذي جعل أوربا تدفع الجزيةَ مقابلَ حمايتِها وأمنِها، وكان يتحكَّم بتعيين وعزلِ مُلوكِهم.

مِن ذلكَ كما قال الحافظُ الذهبيُّ: ألفُ هاونٍ[١] مِن ذهبٍ[٢]، وألفُ تِكَّةٍ[٣] مِن جوهرٍ، وبَنى لها على رأسِ كلِّ منزلةٍ قصرًا فيما بين مصرَ وبغدادَ، كلُّ قصرٍ فيه جميعُ ما يحتاجُ إليه مِن فَرشٍ وسُتورٍ، وغيرُ ذلكَ حتى كأنها في قصرِ أبيها.

ولما دَخلَ بها المعتضِدُ أحبَّها حُبًّا شديدًا لجمالِها وأدبِها، ويقال: إنه طرقَها الحيضُ حينئذٍ مِن مهابةِ الخلافة، فلما مدَّ يدَه إليها قالت: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، فلمَّ يدَه عنها[٤].

ومع هذا فإنَّ خُمارَوَيهْ هذا مات ليلًا مذبوحًا بدمشقَ، ذبحَه بعضُ خَدمِه على فراشِهِ عامَ: اثنين وثمانينَ ومئتينِ.

ـ وهذا الآمرُ بأحكامِ اللهِ الفاطميُّ: خليفةُ مصرَ معَ مهابتِه وجلالتِه كما قال الحافِظُ الذهبيُّ[٥]: «كان الآمرُ رافضيًّا خبيثًا، فاسقًا ظالمًا جبّارًا، مُتظاهِرًا بالمُنكَرِ واللهوِ، ذا كِبرٍ وجَبروتٍ»، قد قتلَه بعضُ العسكَرِ بالروضةِ قربَ مقياسِ مصرَ[٦]، سنة: أربعٍ وعشرينَ وخمسِ مئة، ولم ينتَطِح في قتلِه شاتان[٧].

---

(١) الهاون: وعاءٌ مِن نحاسٍ يُدقُّ فيه، انظر: «مختار الصحاح» (ص٣٢٩).

(٢) إلى هنا كلامُ الذهبيِّ في «تاريخ الإسلام» (٦/ ٧٤٨).

(٣) التِّكَّة: الرباط الذي يكون فوقَ السِّروال، انظر: «المعجم الوسيط» (١/ ٨٦).

(٤) هذه القصةُ ذَكرها ابنُ الورديِّ في «تاريخه» (١/ ٢٠٨) بينَ هارون الرَّشيد وزوجتِه بُوران، والله أعلم.

(٥) «تاريخ الإسلام» (١١/ ٤٢٢).

(٦) مكانٌ قربَ مدينةِ الجيزة، انظر: «المواعظ والاعتبار» (٢/ ١٧٤).

(٧) يقال: أمرٌ لا تنتطح فيه شاتان، أي: لا يَختلف فيه اثنان.

ـ وهذا الظافرُ بأعداء اللهِ إسماعيلُ: قتلَه بعضُ جندِه بدارِ الوِزارةِ المعروفةِ الآنَ بمدرسةِ السِّيوفيَّةِ بالقاهرة[1].

ـ وهذا العاضدُ لدينِ الله: خُلِعَ مِن مُلكِه حتى ماتَ غمًّا وقهرًا.

ـ وهذا المَلِكُ المنصورُ محمدُ بنُ المَلِكِ العزيزِ عثمانَ بنِ المَلِكِ صلاحِ الدين: خُلِعَ مِن مُلكِه وصارَ نسيًا منسِيًّا بعدَ عظمتِه وعظمةِ أبيه وجدِّه.

ـ وهذا المَلِكُ العادلُ أبو بكرٍ ابنُ المَلِكِ الكامِل: خُلعَ مِن مُلكه وسُجِن، ثمَّ قُتِل بأمرِ أخيه المَلِكِ الصالحِ أيُّوبَ.

ـ وهذا المَلِكُ المعظَّمُ تُورانْشاه ابنُ المَلِكِ الصالحِ أيوبَ: قتله عسكرُه، وداسوه بأرجُلِهم.

ـ وهذا المَلِكُ المعزُّ أَيبك: قتلَتْه زوجتُه شجرةُ الدرِّ، سريَّةُ المَلِكِ الصالح.

ـ وهذا المَلِكُ المظفَّرُ قطز: الذي كسرَ التتارَ بأرضِ الشامِ معَ قوَّتِهم وكثرةِ عُدَدِهم، قد قتلَه جماعةٌ مِن عسكرِه، منهم: بيبرسُ المَلِكُ الظاهِرُ، وتَسلْطنَ بعدَه.

ـ وهذا المَلِكُ السعيدُ بنُ المَلِكِ الظاهرِ بيبرس: قد خُلِعَ مِن ملكِه، ونُفِيَ إلى الكَرْك[2]، وحُبِس بها إلى أن مات.

ـ وكذلك أخوه المَلِكُ العادِلُ سلامش: خُلِعَ من المُلْكِ بمَكِيدةِ السلطانِ قَلاوُونَ، وتَسلْطنَ بعدَه.

---

(١) المدرسة السِّيُوفيَّة: أوقفها على فقهاء الحنفيَّة بالقاهرة صلاحُ الدين الأيوبي، انظر: «المواعظ والاعتبار» (٤/ ٢٠٤)، وسُميتْ بالسِّيوفيَّة؛ لأنَّ سوقَ السِّيوفيين كان في ذلك الوقت على بابها، وتُعرف اليومَ باسم: جامع الشيخ مطهر، وتقع أوَّلَ شارعِ الخردجية على يسار الداخل إليه مِن جهة شارع السكة الجديدة، انظر: «موسوعة مدينة القاهرة» (ص٢٧١).

(٢) الكَرْك: مدينة في الأردن، جنوبَ العاصمةِ عمّان.

ـ وهذا المَلِكُ الأشرَفُ خليلُ بن قَلاوُونَ: كان أشجعَ ملوكِ الترك، لا يُعرَفُ فيهم مَن يُدانِيه في الشجاعةِ والسطوةِ والهيبَة، كانت تخافُه الملوكُ في أمصارِها، والوحوشُ العادِيةُ في آجامِها، وهو الذي قَطعَ دابِرَ الفِرنجِ مِن سواحلِ بلادِ الشام، وافتتح مدينةَ عكا بعدَ أنْ باشرَ القتالَ بنفسِه، ونصبَ عليها خمسةً وتسعين مَنجنِيقًا حتى أخذها عنوة، ومع هذا فقد سَطا عليه عسكَرُه لما خَرجَ للصيدِ وقتلوه، وأَدخَلوا السيفَ في دُبرِه، وشقُّوه إلى أعلاه، وذهبُوا وتركوه طرِيحًا.

ـ وهذا المَلِكُ العادِلُ كَتْبُغا: الذي تَسلْطنَ بعدَه خُلِعَ مِن المُلْكِ بعدَ أنْ توجَّهَ للشامِ ومهَّدَها.

ـ وهذا حسامُ الدين لاجِين: الذي تَسلْطنَ بعدَ كَتْبُغا ووقفَ الأوقافَ على جامعِ طُولُون، قد قتلَه بعضُ جندِه ليلةَ الجمعةِ بعدَ العشاءِ، وهو يلعَبُ بالشطرنجِ رحمه الله تعالى.

ـ وهذا المَلِكُ الناصرُ محمدُ بن قَلاوُونَ: معَ جلالةِ قدرِه وعلوِّ أمرِه، قد خُلِعَ مِن السَّلْطنةِ مرَّتينِ، ونُفِيَ إلى الكَرْكِ حتَّى منَّ اللهُ تعالى عليهِ بعدَ ذلك بالمُلْكِ إلى أنْ مات.

ـ وهذا المَلِكُ المظفَّرُ بيبرسُ الجاشنكيرُ: قد خُلعَ من المُلْكِ ثم قُتِلَ.

ـ وهذا المَلِكُ المنصورُ أبو بكر بنُ المَلِكِ الناصرِ: قد خُلِعَ ثم نُفيَ إلى قُوصٍ[1] بالصعيد، ثم قُتلَ بها بعدَ ذلك.

ـ وهذا المَلِكُ الأشرَفُ أخوه: قد خُلِعَ.

ـ وهذا المَلِكُ الناصر أحمد أخوه: قد خُلع، ثم قُتل.

ـ وهذا المَلِكُ الكاملُ شعبان أخوه: قد خُلِعَ وحُبِسَ، ثم بعدَ ذلك قُتِلَ.

---

(١) قُوص: تَقع شرقيَّ نهرِ النيل في محافظة قَنا المصريةِ، جنوبَ مدينة القاهرة.

ـ وهذا المَلِكُ الصالحُ صالحٌ أخوه: قد خُلِعَ وحُبِسَ.

ـ وهذا المَلِكُ الناصرُ حسن أخوه: المنسوبُ إليه جامعُ السلطان حسنٍ بالرُّمَيلة[1]، قد خُلِعَ وحُبِسَ، ثم بعدَ ذلك تَسلْطنَ، ثم بعدَ ذلك قُتِلَ.

ـ وهذا المَلِكُ المنصورُ ابنُ عمِّه: تَسلْطنَ بعدَه، ثم بعدَ ذلك خُلِعَ وحُبِسَ.

ـ وهذا المَلِكُ الأشرفُ شعبانُ ابنُ عمِّهِ: قد خُلِعَ ثم قُتلَ، ولم يدفِنوهُ، بل وضَعُوه في قُفَّةٍ[2] مُخيَّطةٍ ورَموه في بئرٍ، مع أنه كان مِن أجلِّ الملوكِ سماحةً ومهابةً.

ـ وهذا المَلِكُ المنصورُ ولده: قد خُلِعَ.

ـ وهذا المَلِكُ الصالحُ حاجي: قد خُلِعَ، وهو آخرُ الدولةِ القَلاوُونيَّة.

ـ وهذا المَلِكُ الظاهرُ بُرْقُوقٌ: أولُ سلاطينِ الجراكسةِ، قد خُلِعَ ونُفيَ إلى الكَرْكِ، وحُبِسَ بها إلى أنْ منَّ اللهُ عليه ثانيًا بالمُلْك إلى أنْ ماتَ.

ـ وهذا المَلِكُ الناصِرُ فرجٌ ولدُه: قد خُلِعَ، ثم تَسلْطنَ بعدَ ذلك، ثم قتلَه جندُه بعدَ ذلك بدمشقَ، ورمَوه على مزبلةٍ، ثم دفنَهُ بعضُ العامَّة في ثالثِ يومٍ خُفيةً، ومع ذلكَ فقد كان مِن أجلِّ المُلوكِ شجاعةً ومهابةً.

ـ وهذا المَلِكُ المنصورُ أخوهُ: خُلِع.

ـ وهذا المَلِكُ المظفَّرُ أحمدُ بنُ المَلِكِ المؤيَّد: خُلِع.

ـ وهذا المَلِكُ الصالحُ ابن المَلِكِ الظاهرِ طَطَر: خُلِع.

ـ وهذا ابن المَلِك الأشرَفِ برسباي: خُلِعَ بعدَ أبيه.

ـ وهذا المَلِكُ المنصورُ عثمان ابن السلطانِ جَقْمَق: خُلِع.

ـ وهذا المَلِك المؤيَّدُ أحمدُ ابن السلطانِ إينالَ: خُلِع.

---

(١) مسجد السلطان حسن: مِن أشهر وأكبر مساجد مدينة القاهرة، ويقع قربَ قلعةِ الجبل.

(٢) القُفَّة: مثلُ الوعاء الكبير مِن القش، انظر: «القاموس المحيط» (ص٨٤٦).

ـ وهذا المَلِك الظاهر يَلْباي: خلع.

ـ وهذا المَلِكُ الظاهِرُ تَمُرْبُغا: خُلِع.

ـ وهذا المَلِكُ الناصرُ محمدُ ابنُ السلطانِ قايتباي: خُلِعَ، ثم تَسلْطنَ بعدَ ذلك، ثم قُتِلَ شرَّ قتلةٍ.

ـ وهذا المَلِكُ الظاهرُ قانصوه الأشرفيُّ: قامَ عليه عسكرُه فاختفى.

ـ وهذا المَلِكُ الأشرفُ جان بلاط: باني المدرسةِ الجنبلاطيَّةِ خارجَ بابِ النصرِ خُلِعَ، ونُفِيَ إلى الإسكندريَّة.

ـ وهذا المَلِكُ العادلُ: باني العادليَّةِ خارج باب النصر، هجَمَ عليهِ العسكَرُ وقتلُوه.

ـ وهذا المَلِكُ الأشرَفُ قانْصُوه الغُوريُّ: قد قُتِلَ بمرجِ دابقٍ بقربِ مدينة حلبَ في محاربتِه مع السلطانِ سَليمٍ رحمهم الله.

ـ وأما ما وَقعَ مِن الخَلعِ والقتلِ للخلفاءِ الأمويينَ والخلفاءِ العباسيينَ، وباقي سلاطين الأقاليم: فهوَ أشهَرُ مِن أن يُذكر.

وقد بيَّنتُ كثيرًا مِن ذلك في كتابي: «نزهةِ الناظرينَ في تاريخِ من وَلي مصرَ مِن الخلفاء والسلاطين».

وقد حَمى اللهُ تعالى سلاطينَ بني عُثمانَ مِن جميعِ ذلك، وصانَهم عما هنالِك.

ولا يـرِدُ السـلطانُ مصطفـى عمُّ السـلطانِ عثمان: فإنـهُ إنما خُلِـعَ لكونِه ـ كما قيـلَ ـ رجـلًا زاهـدًا في الدُّنيـا، مُقبلًا علـى الآخرةِ، قـد جذبتْـه العنايـةُ الربَّانيةُ إلى حضـرة القـدسِ، وخطفتْه الأسـرارُ الرحمانيَّةُ إلى معـارجِ الأُنس، وصلاحُه أشـهَرُ مِـن أنْ يُذكـر، ومع خَلْعِـه فهو مُبجَّلٌ مُعظَّـم، وعزيزٌ مُكـرَّم، يُقصَدُ بالدعـاءِ ويزارُ، ويَلْتمِـسُ بركتَه ودُعـاءَه الزُّوارُ[1].

---

(١) المؤلِّفُ ـ رحمه الله ـ عاش تلك الفترةَ وأحداثَها، وما ذكره هنا مِن سبب عزلِ السلطانِ مصطفى فيه زيادةٌ عما جاء في كُتب التاريخ، فقِفْ عندَه وانتبهْ له.

[الأمنُ ومحاربةُ المُفسدِينَ والخوارج]

ومن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

تسكينُ الفتَنِ في زمانهم، وأمنُ السُّبلِ في أيامِهم.

وقطعُ دابرِ المفسدين، وقمعُ الخوارجِ المتمرِّدين، وقهرُ المتغلِّبينَ المارقين، بخلافِ أيامِ غيرِهم، فكم كان فيها مِن فِتن، وهمومٍ ومِحَن!

وأوَّلُ حدوثِ الفِتنِ كان مِن حينِ قُتِلَ أميرُ المؤمنينَ عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه، فبلغَت القتلى في وقعةِ الجملِ في حربِ عائشةَ وطلحةَ والزُّبيرِ مع عليٍّ بن أبي طالبٍ رضيَ الله عنهم: ثلاثةَ عشرَ ألفًا، وقيل: عشرينَ ألفًا.

وبلغَتِ القتلى في صفِّينَ في حربِ عليٍّ مع معاويةَ رضي الله عنهما: مئةَ ألفٍ وعشرةَ آلافٍ، وذلك في مئةِ يومٍ وعشرةِ أيامٍ.

ولما خَلَعَ أهلُ المدينةِ الشريفةِ يزيدَ بنَ معاويةَ أَرسلَ إليهم عسكرًا نحوَ عشرينَ ألفًا، ودعاهُم إلى الطاعة فأبَوا إلّا قتالَه لفسقِه، فقُتِل مِن حملةِ القرآنِ سبعُمئةٍ، وعشرةُ آلافٍ ممن لا يُعرَف.

وتوجَّهَ عسكَرُه إلى مكةَ لمحاصرةِ عبدِ الله بنِ الزبيرِ رضي الله عنه، ووَقعَ الخوفُ والرَّجيف[1] بأرضِ الحجاز.

ووقعَ في أيامِ بني أميةَ وعبدِ المَلِكِ بنِ مروانَ مِن خروجِ الخوارجِ فِتنٌ لا تُحصى...

فكم قُتلَ مِن خلائقَ بسببِ خروجِ المُختارِ الخَبيث[2]، وخروجِ مُصعَبِ بنِ

---

(١) الرَّجيف: زلزلةُ الأرضِ واضطرابُها، انظر: «القاموس المحيط» (ص٨١٢).

(٢) المُختار بن أبي عُبيد الثقفي الكذاب، خَرج بالكوفةِ وكَذب على الله وادَّعى أنَّ الوحيَ يأتيه، قُتل في سنة: سبعٍ وستينَ مقبلًا غيرَ مدبرٍ في هوى نفسِه، انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي: (٢/ ٧٠٦).

الزُّبَيرِ! وبسبب الحجَّاجِ بن يوسفَ عاملِ عبد المَلِكِ! بحيثُ بلغَ قتلى الحجَّاجِ الذين قُتِلوا صبرًا مئةَ ألفٍ وعشرينَ ألفًا سوى مَن قُتِل في حروبِه وسراياه، وماتَ وفي حبسِه خمسونَ ألف رجلٍ، وعشرونَ ألفَ امرأةٍ.

ووَقعَ في أيامِ دولةِ بني العبّاسِ مِن الفِتنِ والخوفِ والأراجيفِ ما لا يُحصى.

ـ منها: أنَّ أبا مسلمٍ الخُراسانيَّ صاحِبَ الدعوةِ لبني العبّاسِ قَتلَ ستَّمئةِ ألفٍ، ولما أَسرفَ في القتلِ وجدَ رُقعةً على المنبرِ مكتوبٌ[1] فيها: «اقتُل ما عسَى أن تقتُلَ، فلن تقدِرَ تقتُلُ قاتِلَك»[2]، فكفَّ عن القتل، ثمَّ قُتِلَ بعدَ ذلك بين يدَي أبي جعفَرٍ المنصورِ، مع أنه هو الذي كان السببَ في تمكينه مِن الخلافة، ولكنْ مَن أعان ظالمًا سُلِّط عليه.

وحُكي: أنَّ السفاحَ أوَّلُ خلفاءِ بني العباس، خَرج في طلبِ بني أميةَ في أقطارِ الأرضِ، إنْ وَجد منهم حيًّا قتلَه، وإنْ وَجدَ قبرًا نَبشه وأَحرقَ مَن فيه، حتى لم يترك غيرَ قبرِ معاويةَ وعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ.

وأَتى إلى دمشقَ فدخلَها، وقَتلَ في جامعِها يومَ الجمعةِ في شهرِ رمضانَ خمسين ألفًا مِن بني أُميَّةَ ومواليهم، وكانوا قد استجاروا بالجامعِ فلم يُجِرْهم[3].

ـ ومنها: الفِتنُ الواقعةُ بينَ الأمينِ والمأمونِ ابنَي هارونَ الرشيدِ، فكم قُتلَ فيها مِن خلائق.

---

(١) كذا في النُّسخ، وحسبُ القواعد ينبغي أنْ تكون: (مكتوبًا)، إلا إذا كان الفعلُ: (وجد) مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعلُه، والله أعلم.

(٢) وجدت الخبرَ في «غُرر الخصائص» (ص٥١٠)، ولكنْ بلفظ: «اقتل ما عسى أنْ تَقتُل، فلستَ تقدر أنْ تقتلَ قاتلَك».

(٣) انظر: «البداية والنهاية» (١٠/ ٤٩).

ووَقعَ في القرنِ الثالثِ مِن الأمورِ المَهولَةِ ما لا يُحصَى، بحيثُ إنَّ الخارجِيَّ بابِكَ الخُرَّمِيَّ قَتلَ خمسَمئةِ ألفٍ وخمسين ألفًا، وكانَ ظهورُه سنةَ: إحدى وثمانينَ ومئةٍ(١) في خلافةِ المأمونِ(٢)، ثمَّ أُسِرَ وأُحضِرَ بينَ يدَي المُعتصِم، فأمَرَ بقطعِ يدَيه ورجلَيه، فلمّا قُطعَتْ يدُه لَطَّخَ بدَمِها وجهَه حتى لا يُرى فيه أثرُ الجزَعِ.

ثمَّ ظهرَ رأسُ الزِّنجِ(٣) بنواحي العراقِ، وادَّعى النبوَّةَ والاطِّلاعَ على المغيَّباتِ، وقَتلَ مِن المسلِمينَ ألفَ ألفٍ وخمسَمئةِ ألفٍ، وقَتلَ في يومٍ واحدٍ بالبصرةِ ثلاثَمئةِ ألفٍ(٤).

ووَقعَ في القرنِ الرابعِ مِن الفِتنِ والأراجيفِ ما لا يُحصى:

- مِن ظهورِ الخوارجِ بالمغربِ وقتلِهم الخلائقَ.

- وظهورِ أبي طاهرٍ القُرْمطِيِّ، وقتلِه الخلائقَ بمكةَ وغيرِها، بحيثُ قَتلَ في يومٍ واحدٍ بمطافِ الكعبةِ ألفًا وسبعَمئةِ طائفٍ مُحرِم، وقَتل بمكةَ أزيدَ مِن ثلاثينَ ألفًا، وامتلأَ بئرُ زمزمَ مِن القتلى، واقتَلعَ الحَجرَ الأسودَ الكريمَ مِن الكعبة، وأَخذَه معَه، وهذا لم يقَعْ مثلُه لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وأقامت الكعبةُ بدون الحَجر

---

(١) لعله سبقُ قلمٍ، فالذي في كتب التاريخ أنَّ ظهورَهم كان سنةَ: (٢٠١هـ).

(٢) المأمون تولّى الخلافةَ سنةَ: (١٩٨هـ).

(٣) رأس الزنج هو الطاغية الخارجيُّ عليُّ بنُ محمدٍ، ادعى أنه مِن آل البيت، فقَتل وفَجر، وكان ظهورُه في سنة: (٢٥٥هـ)، وهلك عامَ: (٢٧٠هـ)، انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي: (٦/ ٢٥٥).

(٤) لعلَّ العددَ فيه شيءٌ مِن المبالغة، فالذي في كتب التاريخ أنهم قَتلوا بالبصرة عشرينَ ألفًا، وانظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٢/ ١٢٤).

الأسود فوقَ العشرينَ عامًا[١]، حتى اشتراه بعضُ الخلفاء مِن القرامطة بثلاثينَ ألفَ دينار، وأعاده إليها[٢].

ووَقعَ في أيام دولة الفواطمِ مِن الفتَنِ وإهانةِ أهلِ السُّنةِ وقتلِهم وجَبْرِهم على سبِّ الصحابةِ ما لا يُحصى.

واستولى الفِرَنجُ في أيامِهم على بلادِ الشامِ وإقليمِ مصرَ، وقَتلوا مِن المسلمينَ يومَ الجمعة في حرم بيتِ المقدس أَزيدَ مِن سبعينَ ألفًا، واضطَربت الأحوالُ، وضعُفَ الإسلامُ.

وظَهرت السُّلجوقيةُ ببلادِ المشرقِ ورأسُهم عضُدُ الدولةِ[٣] واستولَوا على العجَمِ والعراقِ، ومُعظَمِ المَشرق والرُّومِ والتُّركِ والصينِ وبلادِ الخطا[٤] المجاورَةِ للسِّندِ، إلى ما وراءَ النهرِ وإلى بلادِ بُلغارٍ والرُّوسِ، واستولى على الخُلفاءِ العباسيينَ، بحيثُ صارَتْ كلِمَتُهم تحتَ كلِمَته، ولخوفِ خلفاء[٥] مصرَ الفاطميين منه راسلوا الفِرَنجَ، وأَطمعُوهم في أخذِ بلادِ الشام، حتى حَصلَ مِن الفِرَنجِ ما حَصلَ مِن الاستيلاءِ على بلادِ المسلمين.

---

(١) قال ابنُ ظَهيرةَ المكيُّ في «الجامع اللطيف» (ص٣٨): «مَكث عندَهم اثنانِ وعشرونَ سنةً إلا شهرًا».

(٢) انظر هذه الحادثةَ في «إتحاف الورى بأخبار أُمِّ القِرى» (٢/ ٣٧٧، ٣٩٤)، و«شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» (١/ ٣٢٢)، «تاريخ الإسلام» (٧/ ٦٤٠ـ ١٥/ ٣٢٠).

(٣) عضد الدَّولة مِن زعماء الدولة البُويهية، وهم قبلَ دولة السلاجقة.

(٤) هي جمهورية الصين اليومَ مِن جهة الهند.

(٥) في (أ) و(ب): «ملوك».

ووَقعَ في ظهورِ دولةِ التتارِ ما لا يُحصى من الأمورِ المَهولَةِ، والفتَنِ العظيمةِ، التي لم يَطرُق الخلائقَ مثلُها مِن قتلِ المسلِمين، واضمحلالِ الدِّينِ، واستَولَوا على الهندِ والصينِ، والسِّندِ والعَجَمِ، وهَربَ منهم السلطانُ محمدُ بنُ خوارزمَ شاه أعظَمُ سلاطينِ المسلِمين، وكانت عدَّةُ جيوشه تسعَمئةِ ألفٍ، فلم تُفد شيئًا، وأَبادتْهم التتارُ وأَخربوا البلاد.

ثمَّ قدِمُوا إلى بغدادَ ووضعُوا السيفَ فيها، بحيثُ قتلُوا مِن المسلِمينَ في بغدادَ ما يزيدُ على ألفي ألفٍ، وقُتِلَ الخليفةُ المستعصِمُ يومَئذٍ، وذَهبَ تحتَ حوافرِ الخيلِ، وألقوا كُتبَ الأئمَّةِ في الدِّجلَةِ؛ وبهذا السببِ انقرضَت المذاهبُ ما عدا المذاهبَ الأربعةَ لانتشارِها[1].

ثم رامَ التتارُ أخذَ حلبَ والشامِ ومصرَ، ووَصلَتْ غاراتُهم إلى غزَّة[2]، ووَقعَت الحروبُ بينَهم وبينَ سلاطِينِ مصرَ: المَلِكِ المظفَّرِ والمَلِكِ الظاهرِ والسلطانِ قَلاوُونَ وابنِه المَلِكِ الناصر، وقُتلَ مِن المسلِمينَ في أيامِهم ما لا يَحصره عدٌّ ولا حساب.

ووَقعَ في أيامِ سلاطِينِ مصرَ الجراكسةِ ما لا يُحصى مِن الفِتن، وقَتلَ بعضُهم بعضًا؛ بسببِ خلعِ مُلوكِهم تارةً، وقَتْلِهم أُخرى.

وخرجَ تيمورلنك في أيامهم، وتزايد خروجُه في أيام المَلِكِ الناصرِ فرجِ بنِ بُرْقُوقٍ، فأَخربَ الخبيثُ البلادَ وأبادَ العبادَ، وسفكَ دماءَ المسلِمينَ بالرُّومِ وحلبَ

(١) تُنظر هذه الداهيةُ الدهماء، والواقعةُ السوداء في «تاريخ الإسلام» للذهبي: (١٤/ ٦٧١).

(٢) في (أ) و(ب): «مدينة غزة هاشم».

والشام، والهندِ والعجمِ وخراسان، وأَذهَب محاسنَ حلبَ والشام، وقَتَلَ فوقَ عشرةِ آلافِ ألفٍ، ونسيَ الناسُ بفتنَتِه ومصيبَتِه مصيبةَ التتارِ، ولم يروا أَعتى مِن ذلك الأعرجِ الجبار.

ولما فَتكَ في أصفهانَ قتلَ في وقعةٍ واحدةٍ ستَّمئةِ ألفِ نفسٍ، فاستغاثوا ببعضِ أُمرائه، فأَمرَهم أنْ يَجمعُوا عِدَّةً مِن الأطفالِ الذينَ قُتِلَ آباؤهم وأُمهاتُهم، ويُوضعونَ[١] على طريقِه يَكُون لعلَّه يَرِقُّ قلبُه؛ لصغَرِهم ويُتمِهم، فلما مرَّ بهم كلَّموه في ذلك فما ردَّ جوابًا ولا أبدى خِطابًا، ثم إنه مالَ بعِنانِ فرسِه عليهم، ومالَ العسكرُ معَه فطحنُوهم تحتَ سَنابكِ[٢] الخيلِ، وكذلكَ فعلَ في بغدادَ وحلَبَ والشام[٣].

وذُكِرَ تيمورُ يومًا عندَ المَلِكِ جلال الدينِ خان فقال: «سبحانَ اللهِ! إنَّ تيمورَ لم يكُن لهُ غرضٌ إلا في إهلاكِ العالَم، وإفناءِ جنسِ بني آدمَ، فإنه استَأصَلَ أَوَّلًا إقليمَنا ـ أي: إقليمَ التركِ ـ وبلادَ التتارِ ونواحيَ الشمالِ، ثمَّ أهلكَ إقليمَ العِراقِ، ثمَّ دمَّرَ إقليمَ الهندِ، ثمَّ أبادَ إقليمَ الشام، ثم أَخرَب إقليمَ الرُّومِ ثغرِ الإسلامِ، ومجمَعِ الغُزاةِ والمجاهدين».

فقال بعضُ الحاضِرينَ: «يا مولانا الخانَ، وأَخرَب أيضًا ديارَ خُراسانَ وسائرَ بلادِ العجَمِ وفارسَ محطِّ رحالِ العُلماءِ».

فقال المَلِكُ جلالُ الدينِ خان: «إنَّ ممالِكَ العجَمِ وإقليمَ فارسَ وخُراسانَ

---

(١) كذا في النُّسخ.

(٢) السُّنْبك وجمعُه سَنابِك: طرفُ مقدَّمِ الحافر، «مختار الصحاح» (ص١٤١).

(٣) في (أ) و(ب) زيادةُ: «وغيرها».

كانت تحتَ قبضَتِه وفي يدِه كالمائدةِ، يتناوَلُ منها ما يشاءُ كيفما اختار، واستولى على غالبِ الممالكِ الإسلاميَّةِ فدمَّرَها».

وأَطالَ في ذِكرِ مصائبِه صاحِبُ كتابِ: «عجائبِ المقدُورِ في نوائبِ تيمورٍ»(١).

وبالجملة فالفتنُ الواقعَةُ في الأزمنةِ السالفَةِ أكثرُ مِن أنْ تُحصى، وإنما أشَرنا إلى بعضٍ منها للمُعتَبرين، ومَن طالعَ تواريخَ السالِفِينَ عَلِمَ ذلك عِلْمَ اليقين.

إذا علمتَ ذلكَ ووَقفْتَ على ما هنالكَ: علمْتَ أنَّ أيامَ دولةِ بني عثمانَ رَوحٌ ورَيحان، بالنسبةِ لما مَضى في سالفِ الزمان، ومَن طالع التواريخَ والأخبارَ عَرف ما مَضى مِن الأشرار.

* * *

---

(١) انظر: «عجائبَ المقدور في أخبار تيمور» لابنِ عرب شاه (ت٨٥٤): مِن (ص١٠) إلى آخر الكتاب.

[ردُّ الصليبيينَ وكفُّ اعتدائِهم]

ومن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

قمعُ النَّصارى الحَربيين، وطردُ الفِرَنجِ المَخذُولينَ إلى أقصى بلادِ المسلِمين، وهم معهم في غايةِ الذلِّ والهوان، والطردِ والخُذلان، والقهرِ والحرمان، ضُربت عليهم الذلةُ والمسكنةُ في زمانهم، وأُهينوا غايةَ الهوان في أيامهم[1].

هذا، وقد كانوا في الأزمنة السالفة ـ خصوصًا في زمنِ دولةِ الفاطميينَ ـ قد قوِيتْ شوكتُهم، وارتفعَتْ كَلِمتُهم، وقويتْ صَولَتُهم وسطوتُهم، واستولَوا على البلاد، وقَهرُوا وأَبادوا العباد، فأَخذوا جزيرةَ قبرصَ مِن أيدي المسلِمين[2]، وأَخذوا جميعَ ساحلِ بحرِ الشامِ غزَّة وعسقلانَ ويافا، وأَرْسوفَ[3] وقَيساريَّةَ[4]، وحيفا وعكّا، وطرابلسَ وصيدا، وبيرُوتَ وأنطاكيا والرُّها، وغالبِ ساحلِ بحرِ الفُراتِ، حتى قاربوا المَوصِلَ وبغدادَ، ثم قَوِيتْ شوكَتُهم فأَخذوا بلادَ صفدٍ ونابلسَ.

ثـمَّ قدِمُـوا إلى القدسِ الشـريف في ألـف ألفِ مُقاتـلٍ، فانزعجـتْ لهم ملوكُ

---

(١) المؤلِّف الفقيهُ الإمام الكرميُّ ـ رحمه الله تعالى ـ يتكلَّم بصريح العبارة عن المحارِبين والمُعتدينَ مِن النصارى، الذين يُعبَّر عنهم أحيانًا بـ: (الصليبيين)، وهذا أمرٌ ينبغي الانتباهُ له. وأما أهلُ الذمَّةِ مِن غير المسلمين فلا يجوز إيذاؤُهم، أو الكلامُ معهم بسوءٍ، بل يجب على الإمام حفظُهم، ومنعُ مَن يُؤذِيهم، فانتبهْ ولا تهم!

(٢) كان فتـحُ مدينـةِ قبـرصَ سِـلمًا فـي عهد عثمـانَ بنِ عفـان، وذلك بإشـارةٍ وطلـبٍ مِن والي الشـام معاويـةَ بـنِ أبي سـفيان رضـي الله عنهمـا، انظر: «تاريـخ الطبـري» (٤/ ٢٦٠).

(٣) أَرْسوف: بلدة في فلسطين شمالَ مدينةِ يافا.

(٤) قَيساريَّة: المقصودُ به هنا مدينةٌ في فلسطين جنوبَ مدينةِ حيفا. وهناك مدينةٌ أُخرى بالاسم نفسِه في الجمهورية التركية.

المسلِمين، وعَظُمَ الخطْبُ على الرَّعيةِ، وابتُلِي الإسلامُ بأَعظمِ بليَّة، وشقَّ على المسلِمينَ واضمحَلَّ الدِّين، فأَخذ الكفرةُ بيتَ المقدسِ مِن أيدي المسلِمينَ في ضحوةِ يومِ الجمعةِ ثالثَ عشري شعبانَ، عامَ: اثنَينِ وتسعينَ وأربعمئةٍ، وقَتلُوا به يومَئذٍ أكثرَ مِن سبعينَ ألفًا مِن العلماءِ والصُّلحاءِ وغيرِهم[١]، وأَخذُوا مدينةَ الخليلِ وبلادَ الكَرْك[٢]، واستولَوا على غالبِ إقليمِ الشامِ حتى كادوا أنْ يأخذوا دمشق.

ثم تعلَّقتْ آمالُهم بأخذِ إقليم مصر، فأَخذوا إسكندريةَ ودِمياط، وجعلُوا جامِعَها كنيسةً، ووَصلَتْ غاراتُهم إلى مدينةِ بَلْبِيسَ[٣]، فأَخذوا مِن هناكَ ثمانيةَ آلافِ أسيرٍ.

وقامَتْ دَولتُهم وعظُمَت شَوكتُهم بالديارِ المصريَّةِ أيضًا، وبَنوا بها الكنائسَ، وأَقاموا بها لهم الدواوِين، وضَربوا فيها بالسِّياط المسلِمين، وراموُا أَخذَ مصرَ والقاهرةَ فأَمرَ شاوِرُ الوزيرُ بإحراق مصرَ فأُحرِقَتْ كلُّها، وأحبَّ إحراقَها ولا تأخُذَها الفِرنجُ[٤].

واستمرَّ القدسُ الشريف، والخليلُ المُعظَّم المنيفُ في أيديهِم نحوَ مئةِ سنةٍ، حتى فتحَه المرحومُ السلطانُ صلاحُ الدينِ وانتزعه مِن أيديهم، واستمرَّ الساحِلُ بأيديهِم نحوَ مئتي سنةٍ.

---

(١) نصَّ على ذلك ابنُ الأثير في «الكامل في التاريخ» (٨/ ٤٢٥).

(٢) الكَرْك: مدينة في الأردن، جنوبَ العاصمةِ عمان.

(٣) بَلْبيس: هي الآن بمحافظة الشرقية بجمهورية مصر.

(٤) كان ذلك بفعل شاوِرِ بنِ مُجيرِ السَّعدي (ت٥٦٤هـ) كان وزيرًا أيامَ العاضد، أَحرق مصرَ عمدًا، واستمرَّت النارُ فيها لتمام أربعةٍ وخمسينَ يومًا، وانظر: «المواعظ والاعتبار» (٢/ ١٦٢).

وكان جهادُ سلاطينِ مصرَ: الصالحِ أيوبَ والكاملِ والظاهرِ وقلاوُونَ وغيرِهم، إنما هو في بلادِ ساحل بحرِ الشامِ ومصر، حتى قيل: إنَّ الفِرَنجَ في أيامِ السلطانِ المَلِكِ الكاملِ لمّا نَزلوا على دمياطَ مِن أعمالِ مصرَ، وملكُوا البلادَ ثلاثَ سنينَ، أراد الكاملُ أن يهرُبَ مِن مصرَ إلى اليمنِ خوفًا منهم، ويترُكَ لهم البلادَ المصريَّة.

وكم قاسى ولدُه المَلِكُ الصالحُ أيوبُ بعدَه مِن النصارى وحروبِهم بنواحي دمياطَ وإسكندرية، بحيثُ خافَ مِن محاصرةِ الفِرَنج لما بلغَه أنهم عازِمون على قصدِ بلادِ مصرَ وأَخذِ القاهرة وانتزاعِها مِن أيدي المسلمين، ومِن حينئذٍ شَرعَ في بناءِ قلعةِ الرَّوضةِ بقربِ المِقياسِ سنةَ: ثمانٍ وثلاثينَ وستِّمئة، وهَدمَ كثيرًا مِن دورِ الناسِ، وهَدمَ ثلاثةً وثلاثينَ مسجدًا كانت بالرَّوضةِ وأدخلَها القلعة، وبالَغَ في إتقانِها مبالغةً عظيمةً، وزَخرَفها حتى قيلَ: استقامَ كلُّ حجرٍ بدينارٍ، وكلُّ طُوبةٍ بدِرهمٍ، وملأها بالأسلحةِ وآلاتِ الحربِ والغِلال، واتَّخذَها سريرَ مُلْكِه، وتحوَّلَ مِن القلعةِ إليها بأهلِه وحريمِه، وصارَتْ هي محلَّ الحُكمِ والأمرِ والنهي، وما زالَ في تعبِ القلبِ مِن جهةِ الفِرَنجِ والقتالِ معهم، حتى ماتَ بالمنصورةِ في حربه مع الفِرَنج[1]، فأَخفَتْ شجرةُ الدرِّ موتَه خوفًا على المسلِمين، وساسَت الناسَ أحسنَ سياسةٍ، حتى أَرسلتْ وأَحضرتْ[2] ولدَه المَلِكَ المعظَّمَ مِن نواحي ديارِ بكرَ، فتسَلْطنَ بعدَ موتِ أبيهِ بنحوِ أربعةِ أشهرٍ، وقاتَلَ الفِرَنجَ فكَسرَهم، وقَتلَ منهم أزيدَ مِن ثلاثينَ ألفًا.

---

(١) جاء في «الأعلام» (٢/ ٣٨) بترجمة المَلِك الصالح أيوب: «نزل أمامَ الفِرَنج وهو مريضٌ بالسلِّ، فمات بناحيةِ المَنصورة، ونُقل إلى القاهرة، مِن آثاره: قلعةُ الرَّوضة بالقاهرة».

(٢) في النسخ: «أحضرت».

وما زالتْ شوكةُ الفِرَنجِ قائمةً وسلاطينُ مصرَ تُجاهِدُ فيهم بساحِلِ بحرِ الشام، مِن حدودِ ثمانينَ وأربعمئة إلى قُربِ أوائلِ القرنِ الثامنِ، حتى غزاهُم المَلِكُ الأشرَفُ خليلُ بنُ قَلاوُونَ، وقَطَعَ دابِرَهم مِن أرضِ الشامِ، واستمرَّتْ جزيرةُ قبرصَ بأيدِيهم حتى فتحَها المَلِكُ الأشرَفُ برسباي، سنةَ: تسعٍ وعشرينَ وثمانِمئةٍ.

وبالجُملة: فالعاقلُ المنصِفُ إذا تدبَّرَ حالَ الفِرَنجِ والنصارى في ذلكِ الزمان، وحالَهم الآنَ مع سلاطينِ بني عثمانَ، وَجدَهم في غايةِ الذلِّ والهوان، والقهرِ والخُذلان، مَلعُونِين أينما ثُقفوا في كلِّ زمانٍ ومكان[1].

***

(١) الكلام هنا عن الفِرَنج والصليبينَ المُحاربينَ كما تقدَّم في صريح عبارةِ المؤلِّف.

[الفتوحات العظيمة]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

الفتوحاتُ العظيمَةُ ببلادِ الرُّومِ وغيرِها.

- **منها: فتحُ مدينةِ بُورصة**، فتحَها السلطانُ أُورْخانُ في حدودِ سنةِ: ثلاثينَ وسبعِمئةٍ(١)، وجعلَها مقرَّ سَلْطنتِه(٢)، وافتتحَ قلاعًا كثيرةً وحصونًا مُنيفةً منيعةً، وكان والِدُه السلطانُ عثمانُ قد افتتح مِن الكفارِ عدَّةَ قلاعٍ وحُصون.

- **ومنها: فتحُ مدينةِ أَدِرنَة**، فتحَها السلطانُ مرادُ بنُ أُورْخانَ سنةَ: إحدى وستينَ وسبعِمئةٍ(٣).

- **ومنها: فتحُ القُسطنطينيَّةِ العُظمى**، مع عجزِ الخلفاءِ الأُمويينَ عن فتحِها، مع أنهم ملكُوا الدُّنيا مِن أقصَى الهندِ والصينِ إلى أقصَى المغرب، وفتحُوا جزيرة

---

(١) فُتحتْ مدينةُ بورصة في ٣ جمادى الأولى عامَ: (٧٢٦هـ)، الموافق: ٦ نيسان ١٣٢٦م.
حاصرها السلطانُ أُورْخان نحوًا مِن عشر سنين، ثم دخلها دونَ قتال، ولم يتعرَّض لأهلها بأيِّ سوء، مما جعل حاكمَها يُعلن إسلامَه، انظر: «الدولة العثمانية المجهولة» (ص٦٥)، و«أطلس تاريخ الدولة العثمانية» (ص٩٨).

(٢) وعندَنا هنا نصٌّ تاريخيٌّ ثمينٌ عن السلطان أُورْخان، أَودعه الرَّحالةُ المغربيُّ ابنُ بطوطةَ في «رحلته» (٢/ ١٩٧) عندما اجتمع به سنةَ: ٧٣٤هـ، فكان مما قال ابنُ بطوطةَ: «هذا السلطانُ أكبرُ مُلوكِ التركمان، وأكثرُهم مالًا وبلادًا وعسكرًا، له مِن الحُصون ما يُقارب مائةَ حِصنٍ، وهو في أكثر أوقاتِه لا يزال يَطوف عليها، ويُقيم بكلِّ حصنٍ منها أيامًا؛ لإصلاحِ شؤونِه وتفقُّدِ حالِه، ويقال: إنه لم يقم قطُّ شهرًا كاملًا ببلدٍ، وزوجتُه امرأةٌ صالحةٌ فاضلة».

(٣) الذي ذكره المؤرِّخ الدكتور أحمد آق كندوز وغيرُه: أنَّ فتحَ أَدِرنة كان في شهر تموز، عامَ: (١٣٦٢م)، وهو يُعادل بالتأريخ الهجريِّ: (٧٦٣)، والله أعلم. وجعل السلطانُ مرادٌ الأول عاصمةَ الدولة هي أَدِرْنة.

الأندلس، ومع ذلك فقد عَجَزوا عن فتحِها لعِظَمِها، وشدَّةِ بأسِ أهلِها، وتحصينِ أسوارِها وحُصونِها.

وكان أوَّلُ مَن غَزاها يزيدُ بنُ معاويةَ في خلافةِ أبيه معاويةَ(١)، ولما حَملَ يزيدُ على النصارى بنفسِه وهزمَهم إليها، أُغلِقَ البابُ دونَه فضَربَ البابَ بعَمودٍ مِن حديدٍ كان في يدِه، فنَفَذَ مِن الجانبِ الآخر، ذَكرَ ذلك صاحبُ كتابِ «الأغاني»(٢).

وغزاها أيضًا مسلمةُ بنُ عبدِ المَلِكِ(٣) في خلافةِ أخيه سُليمان، وأقامَ عليها محاصِرًا لها نحوَ سنةٍ، حتى أَكلَ عسكرُه الميتةَ مِن شدَّةِ الجُوعِ، وحَصلَ لعسكرِه غايةُ الجَهدِ والمَشقَّة.

فلما ماتَ سُليمانُ وتولَّى الخلافةَ بعدَه عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضي الله عنه أَرسلَ يأمرُ مَسلمةَ بالرُّجوعِ عن حرب القُسطنطينيَّةِ؛ لشدَّةِ ما حَصلَ للمسلِمين مِن المشقَّة، ووبَّخَ مسلمةَ على ذلك(٤).

---

(١) وجَّه معاويةُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنه حملتَين لفتح القُسطنطينية، الأُولى عامَ: (٤٩هـ)، واستشهد فيها أبو أيوبَ الأنصاري، والثانيةُ عامَ: ٥٤هـ، وقد خرجتْ هذه الحملةُ مِن جزيرة أَرْوادَ التابعةِ الآنَ لجمهورية سورية، انظر: «أطلس تاريخ الإسلام» (ص٢٨٧).

(٢) «الأغاني» (١٧/ ١٣٦)، وتتمَّةُ عبارتِه: «فهشمه حتى انخرق، فضُرب عليه لوحٌ مِن ذهب، فهو عليه إلى اليوم»، وأَورد القصةَ أيضًا البغداديُّ في «التذكرة الحمدونية» (٩/ ١٧٣).

(٣) وقد جاء في كُتب الحديث والأثرِ عن عبد الله بنِ بشرٍ الغَنَويِّ وهو أحدُ رواةِ حديثِ: «**لتُفتحنَّ القُسطنطينية**»، قال هو أو أبوه: «فدعاني مسلمةُ بنُ عبدِ المَلِك، فسألني عن هذا الحديث، فحدَّثتُه فغزا القُسطنطينية»، انظر: «مسند أحمد» (٣١/ ٢٨٧)، «التاريخ الكبير» للبخاري: (٢/ ٨١)، «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ٤٣٩).

(٤) قال الإمامُ ابنُ كثيرٍ (ت٧٧٤هـ) في «البداية والنهاية» (٩/ ٣٦٠): «وقد لقي مسلمةُ في حصاره القُسطنطينيةَ شدَّةً عظيمة، وجاع المسلمونَ عندَها جوعًا شديدًا، فلما وَلي عمرُ بنُ عبدِ العزيز =

وعَجزَ عن فتحِها أيضًا خلفاءُ بني العباس، معَ ما كان لهم مِن الصَّولَةِ الباهِرَة، والقوَّةِ القاهِرَة، لا سيَّما مثلُ أبي جعفرٍ المنصورِ والرَّشيدِ هارونَ، والمأمونِ والمعتصِمِ، ومَن بعدَهم مِن الخلفاءِ والسلاطين.

وعَجَز عن فتحها أيضًا الدولةُ السَّلْجُوقيَّة والخوارزميَّة، خصوصًا مثلَ: السلطان الأعظم صاحبِ الفتوحات العديدة، والغزواتِ المشهودة، السلطانِ محمود بن سُبُكْتِكَين.

وعَجَز عن فتحها أيضًا خلفاءُ مصرَ مِن الفاطميين، مع ما كان لأوائلهم مِن القوة والكثرة، خصوصًا مثلَ: المعزِّ لدين الله، وابنِه العزيزِ بالله، وباقي سلاطينِ مصرَ كصلاح الدِّين، ونورِ الدِّين الشهيد، والمَلِكِ الظاهر، والمَلِكِ الناصر، ومَن بعدَهم.

وقد فَتَحها بالسيف عنوةً أبو الفتوحاتِ السلطانُ محمد، والهمامُ الأمجَدُ، وهو بذلكَ أَجدرُ وأَحرى، وساقَ إليها العساكرَ بحرًا وبرًّا، وأقامَ في حصارِها خمسينَ يومًا، ثم افتتَحها نهارَ الأربعاءِ، في جمادى الآخرةِ سنةَ: سبعٍ وخمسينَ وثمانمئةٍ[1]،

= أرسل إليهم البريدَ يأمرهم بالرجوع إلى الشام، فحلف مسلمةُ ألا يُقلعَ عنهم حتى يَبنوا له جامعًا كبيرًا بالقسطنطينية، فبنَوا له جامعًا ومنارة، فهو بها إلى الآن يُصلِّي فيه المسلمونَ الجمعةَ والجماعة»، انتهى.

قلت: ويقع هذا المسجدُ في شمال مدينةِ إصطنبول قربَ بُرج غَلَطة، وقد اعتنى به سلاطينُ آل عثمانَ مذ فتحِهم للقُسطنطينية، ويُسمُّونه: (جامعَ العرب الشريف)، انظر: «الموسوعةَ الإسلامية التركية» (٣/ ٣٢٦).

(١) الذي يَذكره المؤرِّخون الأتراك: أنَّ الفتحَ كان صباحَ يومِ الثلاثاء ٢٩ أيار عامَ: (١٤٥٣)، وهو يوافق ـ حسابًا ـ بالتأريخ الهجريِّ عامَ: (٨٥٧)، بشهر جمادى الأولى: ١٢ أو ٢٠ منه، والله أعلم.

وجاء في «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» (ص٢٧٠) ونقله عنه في «شذرات الذهب» (٩/ ٥١٦): =

وصلّى الجمعةَ في آيا صوفيا[١]، ثم جعلَها مقرَّ سَلْطنتِه، ولم تزَلْ دارَ سَلْطنةِ ذُرِّيته إلى يومنا هذا سنةَ: إحدى وثلاثين وألف، جعلَها اللهُ دارَ سَلْطنةٍ لهم وإسلام، إلى ظهور المهديِّ الإمام، ونزولِ عيسى عليهِ الصلاةُ والسَّلام، وخلَّد مُلْكَهم، وجعل الدنيا بأَسرها مِلْكَهم، وأعزَّ بسلطنتِهم الإسلامَ وحزبَه، آمين[٢].

[الإشارةُ النبويَّة إلى فتح القسطنطينيَّة]:

رَوى البخاريُّ في «صحيحه»[٣] مِن حديثِ أمِّ حَرامٍ بنتِ مِلْحانَ عن النبيِّ ﷺ قال: «أوَّلُ جيشٍ مِن أُمتي يَركبونَ البحرَ قد أَوجَبوا، وأوَّلُ جيشٍ مِن أُمَّتي يَغزونَ مدينةَ قيصرَ مغفورٌ لهم».

= «يومَ الأربعاء، العشرونَ مِن جمادى الآخرة، سنةَ: سبعٍ وخمسينَ وثمانمائة».
وأما العصاميُّ في «سِمْط النجوم» (٤/ ٧٩) فجعل الفتحَ في اليوم الرابعِ والعشرين، والله أعلم.

(١) وكان أوَّلُ مَن خطب الجمعةَ في آيا صوفيا العالمُ الكيميائيُّ والطبيبُ المُربِّي محمدُ بنُ حمزةَ الدمشقيُّ البكري، المعروفُ بآقْ شمس الدِّين (ت٨٦٣)، انظر: «سُلَّمَ الوصول» (٣/ ١٣٥)، «الشقائقَ النعمانية» (ص١٣٨)، «تاريخَ الدولة العثمانية» لأوزتونا: (١/ ١٤١).

(٢) ثم شاء الله تعالى أنْ تسقطَ الدولةُ العثمانية، وذلك بعدَ أنْ عمل أعداءُ الإسلام قرونًا مِن الزمان على إضعافها وحربها سرًّا وعلنًا، داخلًا وخارجًا، وانقطع معها العِقدُ الجامعُ لكلمة المسلمِين، وذهبتْ هيبتُهم عندما ذهبتْ خلافتُهم.
وفي تاريخ: (١/ ١١/ ١٩٢٢م ـ ١٢ ربيع الأول ١٣٤١) صدر قرارٌ مِن المجلس التركيِّ بقيادةِ مصطفى كمال، يقضي بإلغاء صلاحياتِ السَّلطنة في الحُكم والسياسة.
ثم بتاريخ: (٣/ ٣/ ١٩٢٤م ـ ٢٧ رجب ١٣٤٢) وافق المجلسُ على إلغاء الخلافة العثمانية، وفي اليوم الثاني مِن إصدار القرار أُخرج السلطانُ عبدُ المجيد الثاني مِن تركيا هو ومَن تبقّى مِن الأُسرة السلطانية، وصُودرتْ أملاكُهم، وبدأ بعدَ ذلك تاريخٌ جديدٌ للأُمة الإسلامية، يَذوقونَ ويلاتِه ويَتجرَّعون آلامَه إلى يومنا هذا، والله وليُّنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(٣) «صحيح البخاري» (٤/ ٤٢).

قلتُ: قد تقرَّرَ أنَّ الشيءَ إذا أُطلِقَ يَنصرِفُ إلى الكامل[١]، والغزوُ الكامِلُ هو فتحُها[٢]، فيحتَمِلُ أنْ يكونَ[٣] المرادُ بهذا الجيشِ: هو السلطانُ محمدٌ المذكورُ وجيشُه، وهذهِ بشارةٌ عظيمةٌ مِن رسولِ الله ﷺ، يَفتخِرُ بها سلاطينُ آلِ عثمانَ على سائرِ ملوكِ الزمان، وهي مسألةٌ غريبةٌ، ونُكتةٌ عجيبةٌ، لم أُسبق إليها.

ومِن غريبِ الاتِّفاقِ:

ـ أنَّ المَلِكَ الذي بنى القُسطنطينيَّةَ اسمُه: قُسطَنطِين، بناها بعدَ المسيحِ بنحو ثلاثمئةِ سنةٍ، قال ابنُ تيميةَ: «وهو الذي ابتَدعَ الصلاةَ إلى المشرق»[٤]، وابتَدعَ الصليبَ أيضًا.

ـ وأنَّ المَلِكَ الذي انتُزِعَت منه حينَ فتحَها السلطانُ محمدٌ كانَ اسمُه: قُسطَنطِينُ أيضًا.

ـ ولما غزا السلطانُ محمدُ بنُ مرادٍ والدُ السلطانِ أحمدَ غزوتَه المشهورةَ لمدينةِ أَكْري ببلادِ المَجَرِ[٥]، واستَشعرَ النصارى عليه بالظفَر، ظنُّوا لكثرةِ عَددِهم وعُدَدِهم أنهم يَنتزِعون منه القُسطنطينيةَ، وقالوا: «بانيها قُسطَنطِين، وأُخِذَت مِن قُسطنطِينَ[٦]،

---

(١) قاعدةٌ أُصوليةٌ مشهورة، انظر: «موسوعةَ القواعدِ الفقهية» (٢/ ٢٢٤).

(٢) أشار إلى ذلك شمسُ الدِّينِ الكورانُّي (ت٨٩٣) في «الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري» (٥/ ٤٨٠)، فإنه قال عندَ حديثِ **«أَوَّلُ جيشٍ مِن أُمتي يَغزونَ مدينةَ قيصرَ مغفورٌ لهم»**: «هي القُسْطَنطِينية، وإنْ كان المرادُ فتحَ المدينة: فنحن أولئكَ الجيشُ مِن فضل الله تعالى، كنا في فتحه مع السلطان المجاهد محمد بن مراد، وفَّقه الله للخيرات وأيَّده».

(٣) «يكون» مِن (أ) و(ب).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٣١).

(٥) هي ببلاد المَجَر في دولة هِنْغاريا اليوم.

(٦) «من قسطنطين» سقط مِن (ش).

وفاتحُها محمدُ بنُ مراد، وتُؤخَذُ مِن محمدِ بنِ مرادٍ».

وكان ـ بحمدِ اللهِ ـ ظنُّهم وقياسُهم فاسدًا، فإنَّ اللهَ تعالى نَصرَ عليهم المسلِمين وأظهر الهدى، وأيَّد المرحومَ السلطانَ محمدًا[1]، ورَجع منصورًا مؤيَّدًا، كما سيأتي بيانُه.

ـ ومنها: **فتحُ رُودُس**[2]، وهي جزيرةٌ عظيمَةٌ بالبحر، توجَّهَ لها السلطانُ سليمانُ عليه الرحمةُ والرضوانُ بنفسِه، وأَخذَ ما حوالَيها مِن قلاعٍ وحصون، وأَحاطَ بها بعساكره برًّا وبحرًا[3].

وكان حِصنُها في غايةِ الاستحكامِ، يَعجَزُ الواصفُ عنه[4]، فما استطاعَ

(١) تُشير سجلاتُ الدولة العثمانية إلى مدى توقير السلطان محمد الثالث للنبيِّ ﷺ، ومن عجيب ذلك أنه كان يقف كلما سمع اسمَ النبيِّ ﷺ، انظر: «سلاطين الدولة العثمانية» لصالح كولن: (ص١٤٢).

(٢) رُودُس: جزيرةٌ غربَ تركيا، تابعةٌ الآنَ لبلاد اليونان، فُتحتْ زمنَ معاويةَ بنِ أبي سفيان، ومِن اللطائف ما جاء في «مسند أحمد» (٢٤/ ٢٠٤): قال مجاهد: «حدثنا شيخٌ أدرك الجاهليَّةَ ونحن في غزوة رُودُس... إلخ».

تنبيه: جاء ضبطُ هذه الكلمةِ في كُتب المعاجم والبلدان بكسر الدال، إلا أنَّ في المعاجم العثمانية والتركية واللغة الحديثة المستعملة في زماننا هي بضمِّ الدال، وانظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» (ص٢٧٩)، وتُكتب بالأحرف اللاتينية هكذا: (Rhodes).

(٣) كان لفتح هذه الجزيرة أهميةٌ كبيرة في حماية الحجاج والمسافرين؛ لأنَّ فرسانَ الهيكل الصليبيين كانوا يَتعرَّضون منها بالقتل والخطف والنهب للحُجاج والمسافرين، وانظر: بحثًا أكاديميًّا حولَها باسم: «الفتح العثماني لجزيرة رُودُس» للدكتور خلف الوذياني.

(٤) مما ذُكر في تحصينها: أنها جزيرةٌ محاطةٌ بقلاع، والقلاعُ محاطةٌ بخندقَين عميقَين، مَن سقط فيهما لا يُمكنه الخروجُ منهما، وكان بهذه الجزيرة سجنٌ مخيفٌ لتعذيب المسلمين والتنكيلِ بهم، يقوم عليه فرسانُ القديسِ يوحنا الأُورشَلِيمي، انظر: «الفتح العثماني لجزيرة رُودُس» (ص٩)، وانظر في وصف تَحصينها «المنحَ الرحمانية» (ص١١١).

المسلمونَ قُربَها مِن المَدافع، فتأخَّرَت عساكرُ البرِّ قليلًا، وساقُوا الرَّملَ والترابَ أمامَهم بحيث صارَ كالجبلِ وترَّسُوا به، وصاروا يُقدِّمُونَه قليلًا قليلًا، إلى أنْ وصلَ الترابُ إلى الخندقِ، وصارَ الكفَّارُ تحتَ المسلِمين، فرمَوهم بالمَدافعِ والنيران، فطَلَبوا مِن السلطانِ الأمان، واستولى عليها السلطانُ سليمان(١).

ـ ومنها: **فتحُ مدينةِ سِكِتْوارَ(٢) ببلادِ النصارى**، خرجَ إليها السلطانُ سليمانُ بنفسِه(٣)، فأَخذَها وهو في مرضِ موتِه، وعندَ تمامِ الفتحِ ماتَ(٤) رحمه الله سبحانه وتعالى(٥).

---

(١) وكان ذلك في السادس مِن صفر عام: (٩٣٠)، انظر: «المنحَ الرحمانية» (ص١١٥).

(٢) سِكِتْوار: مدينة جنوبَ هنغاريا الآنَ، وتكتب: زِكَتْوار، واسمُها بالأحرف اللاتينية: (Zigetvar).

(٣) كان خروجُه لهذه الغزوة في الحادي والعشرين مِن ذي القَعدة عامَ: ٩٧٣، كما في «سِمْط النجوم العوالي» (٤/ ٣٦٣).

(٤) أرَّخ صاحبُ «العقدِ المنظوم» (ص٣٧٦) وفاتَه في ٢٢ صفر سنةَ: (٩٧٤).

(٥) عندَما عزم السلطانُ سُليمان القانونيُّ على الخروج لفتح مدينة سِكِتْوار نهاه الأطباءُ عن ذلك؛ بسبب المرض الشديد الذي كان به، ولكنه أَصرَّ على الخروج وقال لهم: «أُريد أنْ أموتَ غازيًا في سبيل الله»، وخَرج على رأس الجيش، وبقي محاصِرًا لقلعة سِكِتْوار أكثرَ مِن أربعة أشهر، وبعدَ جَولةٍ قام بها السلطان على الجند لتفقُّدِ الصُّفوف الأُولى اشتدَّ به المرض، وطرحه بفراشه، ثم سقطت الحصونُ الخارجية للقلعة فقال السلطان: «طاب الموتُ الآن»، وبعدَ ذلك توفي مُرابطًا مُجاهدًا رحمه الله تعالى، فأَخفى الصدرُ الأعظم خبرَ وفاته، ولم يُخبِر الجندَ؛ خوفًا مِن ضَعفهم أو تقهقُرهم، وأَرسل النبأَ سِرًّا إلى ابن السلطان بإصطنبول، فأَتى ولدُه سَليم إلى ساحة الجهاد، وصار مع المقاتلين، فقال الصدر الأعظم للجند: تَلقُّوا سلطانَكم وترحَّمُوا على سلطانكم، وقاتل مع الجند حتى تمَّ الفتح.

وكانوا قد دَفنوا أعضاءَ السلطانِ الباطنيةَ تحتَ خيمتِه بمكان رِباطه، ثم أُرسل جسدُه فدُفن بإصطنبول، انظر: «نزهةَ الناظرين» للمؤلِّف المطبوع ضمن هذا المجموع، «المنحَ الرحمانيَّة» =

ـ ومنها: **فتحُ حلْقِ الوادي**[١] **وبلادِ تُونِسَ**[٢] **الغربِ**، مِن بعدِ استيلاء النصارى عليها؛ بسببِ الخلافِ الواقعِ بينَ سلاطينِ المغرب مِن آلِ حفصٍ، فصارَ بعضُهم يتقوّى على بعضٍ بالفِرَنجِ، وأطمعُوهم في بلادِ المسلمين فاستولَوا عليها، وتمكَّنوا منها، وحَصَّنوا الحصونَ، وأحكَمُوا القلاعَ بحيثُ أَيِس المسلمون مِن فتحِها وانتزاعِها منهم إلى آخرِ الدهر، وصارَ المسلمونَ تحتَ حُكمِ الفِرَنجِ، وأَخذوا مملكةَ تونِسَ، ووَضعُوا السيفَ في أهلِها، فقَتلوا الرِّجالَ، وسَبَوا النساءَ والأولاد.

فلما بلغَ السلطانَ سليمَ ابنَ السلطانِ سُليمانَ ذلكَ، أَرسلَ مئتي غُرابٍ[٣] مشحونةً بالأبطالِ والمدافعِ وآلةِ الحرب، وكانت غزوةً مشهودة، ووقعةً معدودةً، مِن أعظمِ غزواتِ بني عثمان، يحتاجُ تفصيلُها لمؤلَّفٍ كاملٍ.

فنَصرَ اللهُ تعالى المسلِمينَ بعدَ أن قُتِلَ منهم نحوُ عشرةِ آلافٍ، وأَخربوا القِلاعَ والحصون، وذلك في سنةِ: إحدى وثمانين وتسعمئة.

ـ ومنها: **فتحُ جزيرةِ قُبرصَ**، وكان أوَّلُ مَن فَتحها معاويةُ أميرُ المؤمنينَ رضي الله عنه في أيام خلافتِه، ثم فتحَها المَلِكُ الأشرَفُ برسباي سلطانُ مصرَ، وما زالوا يُؤدُّونَ الجزيةَ مِن حينئذٍ إلى أنْ أَخذُوا في المكرِ والخداعِ، وصاروا يَقطَعونَ الطريقَ في البحرِ على المسلمين، فأَرسلَ السلطانُ سليمٌ العساكرَ إليها فقَتلوا مَلِكَها، واستولى المسلمونَ على الجزيرة بأسرِها إلى يومِنا هذا، ولله الحمد.

= (ص١٣٠)، و«تاريخَ الدولة العثمانية» لأوزتونا (١/ ٣٥٣).

(١) حَلْق الوادي: مدينةٌ ساحليةٌ، قربَ العاصمة تونس.

(٢) نصَّ في «تاج العروس» (١٥/ ٤٨٥) على أنَّ تُونِس: بضمِّ التاء وكسرِ النون.

(٣) الغُراب: سفينة شراعية حربية، انظر: «تكملة المعاجم العربية» (٧/ ٣٢٩).

ـ ومنها: فتحُ المُدنِ الكبيرةِ بعدَ إرسالِ العساكرِ الكثيرة، إلى بلادِ المَجَرِ في أيامِ المرحوم السلطانِ مُراد[(١)].

ـ ومنها: فتحُ مدينةِ أكْري[(٢)]، بعدَ أنْ توجَّهَ إليها السلطانُ محمدُ بنُ مرادٍ بنفسِه[(٣)].

وانْهزمتْ في تلك الغزاة عساكرُ المسلِمين، ثم تدارَكَ اللهُ تعالى بلُطفِه وفتَحِها، وكانت غزوةً عظيمةً.

ثم بعدَ فتحِها كانتِ الوقعةُ المَعدُودَة، والغزوةُ المشهودَة، وذلكَ أنَّ الكفرةَ الملاعينَ تجمَّعَ منهم عدَّةُ سلاطين، وراموا استئصالَ المسلمين، وغرَّهم كثرةُ

(١) هو السلطان مراد الثالث بن سَليم الثاني.

(٢) مدينة (أكْري) وقلعتُها الحصينة، تقع الآنَ في شمال شرق دولة هنغاريا، وتُعتبر الآنَ مِن أهمِّ المعالم السياحية فيها، ولا زالوا إلى الآن يَحتفظون فيها ببعض التراث العثماني وملابسهم، وتُسمى أيضًا: (إغر)، ولمزيد ضبطِ اسمِها فإنها تُكتب بالأحرف اللاتينيَّة هكذا: (Egri).
وهذه القلعةُ لم تُفتح زمنَ السلطان سليمان القانوني رَغمَ حصارِها: ٣٩ مرَّة، ثم فُتحتْ على يدي محمد الثالث في: ١٨ يومًا!

(٣) بعدَ الحادثةِ الأليمة التي حَصلتْ مع السلطان سليمانَ القانونِّي في فتح سِكِتْوار واستشهادِه هناك، تَخلّى سلاطينُ آل عثمانَ عن عادتِهم في الخروج على مقدِّمة الجيش، ثم عادتْ في زمن السلطان محمد الثالث، وعندَما خَرج محمد الثالث مِن قصره للمعركة أَخذ معه نحوًا مِن نصف خزينتِه الشخصية؛ ليُنفقَها على المعركة والمجاهدين، انظر: «الدولة العثمانية» لأوزتونا: (١/ ٤٣٨).
ومما يُذكر هنا: أنَّ لشيخ الإسلام سعدِ الدِّين أفندي فضلًا كبيرًا بتشجيع السلطان محمد الثالث على الخروج بنفسه لقيادة الجيش، فإنه قال للسلطان: «أنا معك أَسير حتى أُخلِّص وُجودي مِن الذنوب»، انظر: «سلاطين آل عثمان» للقرماني: (ص٦٣).
وشيخُ الإسلام سعد الدِّين أفندي هو: محمدُ بنُ حسن جان (ت١٠٠٨)، ويُعرف بـ: (معلِّم السلطان)، انظر: «خلاصة الأثر» (٣/ ٤١٨).

عَددِهم وعُدَدِهم، يزيدونَ في تلكَ الوقعةِ على ثلاثمئةِ ألفٍ وستينَ ألفَ مقاتلٍ، غيرَ أتباعِهم مِن كلِّ راكبٍ وراجل، فالتقَوا يومَ الجمعةِ في تلك الوَقعة، وظنَّ كلُّ مَن حضرَها أنْ لا رجعة، فلما تقابلَ الجيشان، واصطفَّ الجنسان، وتلاطَمَ البَحران، واشتدَّ البُحران(١)، واصطفَّت الأقدامُ، واصطكَّت الأجرام، واصطَفَّ المؤمنونَ كأنهم بُنيانٌ مرصوصٌ بسيوفٍ مُهنَّدَةٍ، وطائفَةُ الكفرَةِ الفجرة كأنهم خُشبٌ مُسنَّدَة، دارتْ رَحى الحربِ يمينًا وشمالًا، وهبَّت نسماتُ الأرواحِ جنوبًا وشمالًا، فقُطِعَت الرُّؤوس، وتبدَّدتِ النفوس، وتيتَّمت الأولادُ، وطُرحتِ الجُثثُ تحتَ سَنابكِ الجيادِ، وأَيقنَ المسلمونَ بالهزيمةِ في تلكِ الوَقعةِ العظيمَةِ.

فنزَلَ السلطانُ محمدٌ وصلّى على الأرضِ وبَكى، وتَضرَّعَ وابتهَلَ ذليلًا إلى مَن يسمع ويَرى(٢).

ثم بعدَ ذلك حَملَ المسلمونَ أيضًا على كلِّ مَن كَفرَ وفَجرَ مِن طائفة مَجَر، فلاحَ فلاحُ أَلويةِ النصْر، وأقبلَتِ البشائرُ لسلطانِ العصْر، ونادى مُنادي البشارة بهزيمةِ المشركين، الكفرَةِ الملاعين، ونَسخَت المِلَّةُ المحمَّديةُ الملَّةَ العِيسويَّةَ عن تحقيقٍ بيقين، ورجعتْ بالغنيمة والظفرِ عساكرُ المسلِمين(٣).

---

(١) البُحران: الأمراض والعِلل، انظر: «تاج العروس» (١٠/ ١٢١).

(٢) وتذكر المصادرُ: أنَّ السلطانَ محمدًا الثالثَ عندما خرج لهذه المعركة المهمَّةِ والصعبة، اصطحب معه مِن إصطنبولَ بُردةَ النبيِّ ﷺ وسيفَه؛ تشجيعًا للجند على القتال ودبِّ الحماس بقلوبهم، وعندما شعروا بالهزيمة أراد السلطانُ أنْ يدعوَ ويتضرَّعَ وهو لابسٌ بردةَ النبيِّ ﷺ ولكنه تردَّد وخجل، فقال له شيخ الإسلام سعدي أفندي: «يا سلطاني الحبيب، إنك السلطانُ العثماني، والخليفةُ الذي يتبع طريقَ الرسولِ ﷺ، ولذلك يَحقُّ لك أنْ ترتديَ العباءةَ الشريفة، وتبتهلَ إلى الله»، فلبسها السلطان، وتم الفتح بفضل الله تعالى، انظر: «سلاطينَ الدولة الثمانية» لصالح كولن: (ص١٤٠).

(٣) عندما اشتدَّتْ وطأةُ هذه المعركةِ على المسلِمين، وضَعُفَ فيها السلطانُ محمد الثالث وكاد أنْ =

ومنها: ما فَتحه سلطانُ عصرِنا السلطانُ عثمان، مِن حصونهم المَنيعَة، وقلاعِهم الكبيرةِ الشَّنيعَة[١]، وبلادِهم الواسعة، بعدَ أن توجَّهَ للجهادِ بنفسِه في سنة: ثلاثينَ وألف[٢]، وفعلَ بهم الأفاعيل، ومَحا رُسومَ الضلال والأباطيل، ولم يُصغِ في خروجه إلى زُخرف الأقاويل، وذلك لما بلغَه: أنَّ النصارى ببلادِ الرُّوسِ قد تحرَّكوا لكنْ حركاتٍ هالَتْ عليهم الجُنود، وحلَّ عليهِم بسببِها ما حلَّ بعادٍ وثمود.

وجُـرْمٍ جـرَّه سـفهاءُ قَـومٍ فحَلَّ بغَيـرِ جانِيـه العِقـابُ[٣]

فَنـادى - نصـره الله تعالـى - بالجهـادِ إلـى بـلادِ الـرُّوس، عازمًا علـى أنْ يقطعَ منهـم الأعنـاقَ والـرُّؤوس، وتجهَّزَ إليهم بعسـاكِرَ مِن الـرُّوم، وجيـوشٍ لا تُحصى كالنُّجـوم، وجحافِـلَ تنصَـبُّ انصبـابَ الغُيـوم، وقبائـلَ تمحـو الآثـارَ والرُّسـوم،

= يُكسرَ، حتى إنَّ الصدرَ الأعظم أشار على السلطان بالانسحاب خشيةَ وقوعِه بالأسر، فقال شيخُ الإسلام سعدُ الدِّين أفندي للسلطان: «إنَّ الجيشَ الذي لا يَرى السلطانَ في مكانه يَتشتَّت»، وقال أيضًا: «اثبُتْ أيها المَلِك، فإنك منصورٌ بعون مولاك الذي أعطاك، وبالنعم أولاك»، فركب السلطان جوادَه، وحمل سيفَه وتضرَّع إلى القوي العزيز، فما مضتْ ساعةٌ حتى نزل النصر.
ثم بعدَ فتحها أُقيمتْ صلاةُ الجمعة، فكان أولُ مَن خَطب بها شيخُ الإسلام سعدُ الدِّين أفندي، انظر: «الدولة العثمانية» لأُوزْتونا: (١/ ٤٣٨)، و«سلاطين آل عثمان» للقرماني: (ص٦٣).

(١) «الشنيعة» زيادةٌ مِن (أ).

(٢) المتتبِّع لتاريخ السلطان الشاب الشجاع عثمان الثاني يجد - مع الأسف - شُحًّا كبيرًا حولَ جهادِه، وفي خروجه بنفسه للمعارك، ولكني استطعتُ - بفضل الله - تعيينَ هذا المكان الذي خرج إليه السلطانُ عثمان بنفسه لقتال الرُّوس، وهي المعركة التي وقعتْ عندَ قلعةِ خُوتِين (Khotyn) في الشمال الغربي لدَولةِ أُوكرانيا اليوم، ولا تزال هذه القلعةُ إلى يومنا هذا، وانظر: «تاريخَ سلاطين بني عثمان» لآصف: (ص٧٧).

(٣) «ديوان المتنبي» (ص٣٨٣)، والذي فيه: «جارمه» عوضًا عن: «جانيه».

وخَـرجَ مِـن القُسـطنطينيَّةِ بتلـكَ الجمـوعِ والجنـود، رافعًـا علـى السِّـماكِ الألويةَ والبُنـود، وهـو بيـنَ تلـكَ المواكبِ كأنـه القمـرُ حُـفَّ بالكواكب، بصوارمِ سـيوفٍ تَقطِـف[1] حُروفُهـا أعنـاقَ المُتمرِّدِيـن، وأهلَّـةِ قِسـيٍّ تُرسِـلُ نجـومَ سـهامِها علـى شـياطينِ الكفَـرةِ والمُعاندِين، وسـارَ والفتحُ المبيـنُ مقدِّمةُ جنـودِه، والنصرُ العزيزُ مقـارنٌ لصُـدُورِه ووُرودِه، وخيـولُ عـزِّهِ في ميادينِ الظَّفَرِ سـابقة، وريـاضُ هِمَمِه بغيـوثِ كرمِـه ناضِرةٌ باسِـقَة.

فلما تراءى الجمعان، واصطَدمَ الفريقان، رُميتْ السِّهامُ والمَدافع، واندهشَ لبُّ الهُمامِ والمُدافِع، وقامت الحربُ على ساق، وطارَت الرُّؤوسُ والأعناق، وصالَ عليهم بعساكرِه الباهِرة، وجموعِه العظيمةِ القاهِرة، وجيوشِه الظافِرةِ الظاهِرة، ودارتْ الخيولُ فانعَقَد مِن سَنابكِها سماءٌ مِن العَجاجِ[2] نجومُها الأَسنَّة، وطارَتْ إليهم عِقبانٌ مِن الجيادِ قوادِمُها القَوادِمُ وخَوافِيها[3] الأعنَّة، وأخذتْهم رُعودٌ مِن الصواعِقِ والصَّهيل، وأبرقَتْ في جوانبِها بُروقٌ مِن كلِّ سيفٍ صَقيل، فمزَّقَ مِن المشركينَ تلكَ الصُّفوف، وفرَّقَ تلكَ الجموعَ الهائلةَ بعدَ أنْ قَتلَ منهم الأُلوف، وجَعلَ أطلالَهم ممحُوَّةً بالطمْس، وأجسادَهم كأنْ لم تَغنَ بالأمْس، وحضرَتْ لدَيه سلاطينُهم حيارى خاشِعة، وصناديدُهم أُسارى خاضِعة، فقرَّرَ عليهم في كلِّ عامٍ جزيةَ الصَّغار، غيرَ ما سباهُ منهم مِن النساءِ والصِّغار.

ورَجـعَ مؤيَّـدًا منصـورًا، مُستبشِـرًا مسـرُورًا، بتلـكَ العسـاكرِ والجيـوشِ غيرِ

---

(١) في (ش): «تعطف».

(٢) العَجاج: هو الغُبار، انظر: «القاموس المحيط» (ص١٩٧).

(٣) الخوافي: ريشُ جناحِ الطائر، انظر: «مختار الصحاح» (ص٩٤).

المحصورَة، والألويـةِ والأعـلامِ المنصـورَة، وابتهَجـتْ بنَصـرِه الدُّنيـا مـعَ تباعُدِ أقطارِهـا ودِيارِهـا، والأُممُ علـى اختلاف ألسـنَتِها وأدوارِها، وزُيِّنـت البلادُ بجميعِ مُدنِهـا وأمصارِهـا، وابتهلَت الرَّعايـا بالدعاءِ بتأييـدِ عزائمِه، وتأبيدِ سـفكِ دمِ العِدا علـى أَلسـنةِ صوارمِه.

فللَّـهِ مِـن فتـحٍ قَضـى علـى دمِ العِـدا بالسـفكِ ودموعِهـم بالسـفح، وتُليَـتْ لدَيـه مِـن آيـاتِ التهانـي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، والآمـالُ ممتـدَّةٌ فـي أنْ تكـونَ عزَماتُـه الكريمـةُ لبقيَّـةِ البـلادِ فاتحـة، ورايـاتُ الظَّفـرِ والنصرِ بيـنَ يدَيه تَتْلـو له سـورةَ النصـرِ والفاتحـة، لا بَرِحـتْ ثغورُ الإسـلامِ بنصـرِه باسـمةَ الثغور، وعرائـسُ المعالـي بفضلِه مُحـلّاةَ النُّحور، وغُيـوثُ كرمِه الهاميةُ تزيـدُ على الغَمام والبُحـور، آمين.

***

[الاعتناءُ بالثُّغور وإقامةُ الأُسطولِ البَحري]

ومن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

تحصِينُ ثغورِ المسلمينَ وقلاعِ المُوحِّدِين، وتعميرُ سفُنِ الجهادِ وإقامَةِ العساكرِ بها، والأجنادُ يطوفونَ في البحرِ شتاءً وصيفًا، ويَدفعونَ عن بلادِ المسلمينَ بلاءً وحَيفًا، وآمنَ في أيامِهم مثلُ دِمياطَ وعكّا وحَيفا.

وأقاموا في البحرِ وزيرًا يُقال له: (القُبطان)، بمنزلَةِ الوزيرِ الأعظَمِ في الرِّفعةِ والشان، ومِن تحتِ يدِه عدَّةُ باشواتٍ معَ كلِّ واحدٍ عدَّةُ سفنٍ مشحوناتٍ بالمَدافِع، وآلاتِ الحربِ والسِّلاح، والطَّعنِ والضَّربِ والكفاح، بحيثُ نامَت الرَّعايا في بلادِهم في مِهادِ الأمان، وباءَ الفِرَنجُ بسوءِ الطَّردِ والخُسران، ولو نَصحَت العساكرُ حقَّ النصيحةِ لمولانا السلطانِ لأخذوا مدينةَ مالطة[1]، التي حَصل بها للمسلمين المسافرين في البحرِ غايةُ الضَّرر، ولَمَا حَملتْ مُحاصرةَ شهرَينِ أو أكثر، ولو علِمَ بالحالِ مولانا السلطانُ لخَرجَ لفتحِها بنفسِه، ونَصب عليها معاريجَ قُدسِه.

دمَّرها اللهُ تعالى في أيامِه، وضاعَفَ في قدرِه واحترامِه، آمين.

وبالجُملة: فالعساكرُ والأجنادُ التي في البحرِ مِن أتباعِ آلِ عثمانَ بجزائر الغرب ورُودُس، وساقِس[2] وبحرِ الرُّوم، وما هم فيه مِن المنعةِ والبأسِ

---

(١) مالطة وتُكتب أيضًا: مالطا، هي مِن أصغر دول العالم في زماننا، وتقع في البحر الأبيض المتوسط قُبالةَ ساحلِ طرابس الليبي، وقربَ السواحلِ الإيطالية.

(٢) ساقِس، وتُكتب في المراجع القديمة أيضًا: ساقِز، وخِيوس، واسمُها في زماننا: شيُوس، وتُكتب بالأحرف اللاتينية: Chios، وهي الآنَ تابعةٌ لجزر اليونان مِن جهة مدينة إزمير على السواحل التركية.

والكثـرَةِ لـم يتَّفِـق لغيرِهـم مِـن السـلاطينِ، ولهـم بذلـكَ غايـةُ الأجْـر، مـعَ الفوزِ بالغنيمَـةِ والنصْـر.

رَوى مسـلمٌ في «صحيحِه»(١) عن أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنه: أنَّ رسـولَ اللهِ ﷺ كان يدخُـلُ علـى أُمِّ حَـرامٍ بنـتِ مِلْحـانَ فتُطعِمُـه(٢)، وكانـت أمُّ حَـرامٍ تحـتَ عُبـادةَ بـنِ الصامـتِ وهيَ خالـةُ أنس، فدَخـلَ عليها رسـولُ اللهِ ﷺ يومًـا فأطعمَتْه، ثـمَّ جلسَـتْ تَفلِي رأسَـه(٣) فنـامَ رسـولُ اللهِ ﷺ، ثمَّ اسـتيقَظ وهو يضحَـك، قالت: فقُلـتُ: مـا يُضحِـكُكَ يـا رسـولَ الله؟! قـال: «نـاسٌ مِـن أُمَّتي عُرِضـوا علـيَّ غزاةً فـي سـبيلِ الله، يَركبُـونَ ثَبَـجَ ـ أي: ظَهْرَ ـ هـذا البحرِ مُلـوكًا على الأسِـرَّة»، أو «مثلَ المُلـوكِ علـى الأسِـرَّة»، تشـكُّ أيَّهمـا(٤)، قالت: فقلـتُ: يـا رسـولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أنْ يجعلَنـي منهـم، فدعـا لهـا، فرَكبتْ أمُّ حَـرامٍ بنـتُ مِلْحانَ البحـرَ في زمـن معاويةَ، فصُرِعـتْ عـن دابَّتِهـا حيـن خَرجتْ مِـن البحـرِ فهلكَتْ.

وفي لفظٍ آخرَ(٥): فاستَيقظَ وهو يضحَكُ فقلتُ: ما يُضحِكُكَ بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ؟! قال: «أُريتُ قومًا مِن أُمَّتي يركَبونَ ظهرَ البحرِ كالمُلوكِ على الأسِرَّة»، فقلتُ: ادعُ اللهَ أنْ يَجعلَني منهم، قال: «فإنَّكِ منهُم»، فتزوَّجها عبادةُ بنُ الصامتِ بعدُ فغزا في البحر، فحَملَها معه، فلمّا أنْ جاءَتْ قُرِّبتْ لها بغلةٌ لتركبَها، فصَرعتْها فاندقَّتْ عنقُها.

---

(١) «صحيح مسلم» (٣/ ١٥١٨).

(٢) قيل: إنَّ أمَّ حَرامٍ كانت خالتَه رضاعًا، وقيل: بالخصوصية، انظر: «فتح الباري» (١١/ ٧٨).

(٣) أي: تفتِّش ما فيه.

(٤) كذا في النُّسخ! والذي في المصادر الحديثية: «شكَّ إسحاق»، وهو أحدُ الرُّواةِ في السند.

(٥) «صحيح مسلم» (٣/ ١٥١٩).

ورواه البخاريُّ[١] وقال فيه: «ناسٌ مِن أمَّتي يَركبُون البحرَ الأخضرَ[٢] في سبيلِ الله، مَثلُهم مَثلُ المُلوكِ على الأسِرَّة».

وفي لفظٍ آخرَ[٣] له قال فيه: «عجِبتُ مِن قومٍ مِن أُمَّتي يَركبُونَ البحرَ كالملوكِ على الأسِرَّةِ».

فهذِه بشارةٌ عظيمةٌ لغُزاةِ البحرِ مِن العساكرِ والأجناد، فيا فوزَ مَن أَخلصَ منهم نيَّتَه في الجهاد.

* * *

(١) «صحيح البخاري» (٤/ ١٦).

(٢) الوصف بالأخضر وصفٌ لازمٌ لكلِّ البحار، وقيل: هو لتخصيصِ البحر بالمِلْح، انظر: «فتح الباري» (١١/ ٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٤/ ٣٦).

[تأمينُ طريقِ الحجِّ والمسافرين]

ومن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

قهرُ المُفسدِينَ مِن العُرْبانِ(١)، وطردُهم مِن البلدانِ.

وتعميرُ القلاعِ بالبراري والقِفارِ، خصوصًا في طريقِ الحُجّاجِ والعُمّار، والمَفاوِز المَخُوفَة.

وإقامةُ الأجنادِ بها لمَعُونة المسافرين، وإسعافِ المُنقَطِعين، معَ الاهتمامِ الزائدِ بشأنِ الحُجَّاج.

وتهيئةُ العساكرِ للسلوكِ بهم في مَخاوف الفِجاجِ معَ ترتيبٍ عجيب، وتركيبٍ غريب.

ودفعُ أموالٍ جزيلَةٍ مِن قِبلِ السَّلْطنةِ لدفعِ المُتغلِّبينَ، مِن العُربانِ المفسِدين، بحيثُ يسيرُ الحُجاج وهم في غايةِ الأمان، ونهايةِ الاطمئنان، وكَفَوهم همَّ مُؤنةِ العُرْبان.

***

(١) لعله أراد بالمُفسدين العُرْبان: اللصوصُ الذينَ أرادوا الخروجَ على الدولة العثمانية باليمن، انظر: «المنح الرحمانيَّة» (ص١٩٠).

[تركةُ السُّلطانِ تعود لبيتِ المال]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

أنَّ السلطانَ منهم يموتُ ولا يُنقَلُ عنه أنه خلَّفَ تركةً يقتَسِمُها ورثَتُه مِن بعدِه، كما كانت الملوكُ السالفةُ، والسلاطينُ الماضيةُ، بل جميعُ ما تركَه هو لبيتِ مال المسلمين، يُصرف في مصالح العساكر والغُزاة والمجاهدين.

هذا أحمدُ بنُ طُولُونَ: سلطانُ مصرَ لما ماتَ خلَّفَ عشرةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، وسبعةَ آلافِ فرسٍ، وسبعةَ آلافِ مملوكٍ، وثلاثةً وثلاثينَ ولدًا ذكرًا.

وهذا الأفضَلُ بنُ أميرِ الجيوشِ: أحدُ وزراءِ الخلفاءِ مِن الفاطميينَ بمصرَ، تركَ بعدَه مِن الذهبِ كما قال ابنُ خَلِّكان[1]: «ستَّمئةِ ألفِ ألفِ دينارٍ، ومِن الفضَّةِ مئتينِ وخمسينَ إرْدَبًّا[2]، وسبعينَ[3] ألفَ ثوبِ ديباجٍ أطلسَ[4]، ودواةَ ذهبٍ فيها جوهَرٌ باثني عشرَ ألفَ دينارٍ، وخمسَمئةِ صندوقِ ثيابٍ للُبْسِ بدَنه، وتَركَ صُندوقَين كبيرَين فيهما إبرُ ذهبٍ برسمِ النساء، ومِن سائرِ الأنواعِ ما لا يعلَمُه إلا الله»، ذَكرَ ذلك كلَّه ابنُ خَلِّكان.

وهذا السلطانُ بُرْقُوقُ: خلَّفَ مِن الذهبِ ألفَي ألفِ دينارٍ[5]، ومِن الأثاثِ ما

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٥١).

(٢) الإرْدَب: يُعادل في زماننا ٥٢. ٢ كغ تقريبًا، انظر: «الإيضاحاتِ العصريةَ للمقاييس والمكاييل والأوزان والنقود الشرعية» (ص٧٥).

(٣) الذي في «وفيات الأعيان»: «خمسة وسبعين».

(٤) الأَطلس: ثوبٌ مِن حريرٍ منسوجٍ، ليس بعربيٍّ، كذا في «تاج العروس» (١٦/ ٢٠٥).

(٥) الذي في «النجوم الزاهرة» (١٢/ ١٠٦): «خلَّف مِن الذهب ألفَ ألفِ دينار وأربعَمائة ألفِ دينار».

قيمَتُه ألفُ ألفِ دينارٍ وأربعمُئةِ ألفِ دينارٍ، سوى الخيولِ المسوَّمةِ والبغالِ الفارِهَة، والجمالِ البُختيَّة، وكانَ عَليقُ[١] دوابهِ التي في نفسه خاصةً في كلِّ شهرٍ أحدَ عشرَ ألفَ إرْدبٍّ[٢] شعيرٍ.

وهذا سلارُ نائبُ السَّلْطنةِ بمصرَ: صاحِبُ المَلِكِ المُظفَّرِ بيبرسَ الجاشْنكِيرُ[٣]، لما عاقبَه السلطان المَلِكُ الناصرُ محمد بن قَلاوُون[٤]، وجدَ عندَه في سردابٍ أكثرَ مِن خمسينَ حملِ بغلٍ مِن الذهبِ والفضَّةِ، وفي موضعٍ آخرَ سبعًا وعشرينَ خابيةً مِن الذهب، ومِن الجواهرِ شيئًا كثيرًا، وأخرَجَ ألفي حِياصةٍ[٥] مجوهرَةٍ بالفصوصِ، وألفَي قِلادَةٍ مِن الذهبِ، ثم حبسَه المَلِكُ الناصرُ حتى ماتَ جوعًا، فأكلَ ساقَ خُفِّه، ووجدُوهُ عاضًّا على السَّرْمُوجَة[٦]، وكان في شَونتِه[٧] يومَ موتِه مِن الغلالِ ما يزيدُ على أربعمئةِ ألفِ إردَبٍّ.

قال ابنُ الجزريِّ[٨]: «وُجِدَ لسلّارَ بعدَ موتِه غيرُ ما أُخِذَ منه في حياته مِن الذهبِ

---

(١) العَليق: ما يُعلَّق على الدابة ليوضعَ به الشعير ونحوُه، انظر: «تاج العروس» (٢٦/ ١٩١).

(٢) انظر: ما تقدَّم عن الإرْدَب.

(٣) الجاشْنكير: دخيلة، صنفٌ مِن الجند يقوم بخدمة المائدة في دُور الخلفاء والعظماء، فصيحها: النَّدل، «معجم متن اللغة» (١/ ٥٣١).

(٤) «محمد بن قلاوون» زيادةٌ مِن (أ) و(ب).

(٥) الحياصَة ما يُشد به حِزامُ السَّرج، «القاموس المحيط» (ص٦١٦).

(٦) السَّرْمُوجَة أو السَّرمُوزَة: فارسية معرَّبة، وهي رأسُ الخف، انظر: «معجم متن اللغة» (٣/ ١٤٥).

(٧) الشَّونة: مخزن الغلَّة، «القاموس المحيط» (ص١٢١٠).

(٨) هو شمس الدين محمدُ بنُ إبراهيمَ الجزري (ت٧٣٨)، صاحب التاريخ المسمى: «حوادث الزمان»، طُبع قسمٌ منه، ونَقل كلامَه بتمامه الذهبيُّ في «السير» (ص٤١٢) (الجزء المفقود).

ثلاثُ مئةِ[1] ألفِ ألفِ دينارٍ، غيرَ الجواهرِ والحُليِّ والخيلِ والسلاحِ»، واستبعد الحافظ الذهبيُّ ذلكَ وقال[2]: «هذا كالمستحيل».

ولم يُنقَل عن أحدٍ من سلاطينِ بني عثمانَ شيءٌ مِن مثلِ هذا، ولعلَّ السرَّ في ذلكَ والسببَ فيما هنالك: هو قتلُهم أولادَهم الذينَ هم أعزُّ مِن المال خوفًا على المُلْك، وخشيةً مِن الفتنِ ووقوعِ سفك الدماء والمِحَن، فلا وجهَ حينئذٍ لأن يَتركوا مِيراثًا، أو يَقتسموا تُراثًا، أو يُخلِّفوا أمتعةً وأثاثًا.

***

(١) في النسخ: «ثمانمئة»، والمثبتُ موافقٌ للمصادر التاريخية.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (ص٤١٢) (الجزء المفقود).

[قتلُ الأولادِ خوفًا مِن الفِتن]

ومن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

قتلُ أولادِهم الذكورِ خوفًا من إثارة الفتنِ[(١)]، وفسادِ المُلْك، واختلافِ الكلمةِ، وشقِّ العصا بينَ المسلمينَ، وهذا الأمرُ لم يَسبِقْهم إليه أحدٌ فيما أعلم، وهو وإنْ كان أمرًا يَنفِرُ منه الطبعُ السليمُ بحسبِ الظاهرِ، لكنه في نفسِ الأمرِ خيرٌ كبيرٌ، ونفعٌ كثيرٌ، ومع ذلكَ فلم يَظهرْ لي جوازُ ذلك على سبيلِ الإطلاقِ؛ لأنهُم أطفالٌ لا ذنبَ لهم أصلًا، وكونُ يَحصُل منهم بغيٌ وإثارةُ فِتنٍ فيما بعدُ فهوَ أمرٌ غيرُ مُحقَّق، وتركُ القتلِ في مثل ذلكَ أَلْيَق.

ولعلَّ مَن أفتى مِن العلماءِ بالجواز، واستحَلَّ قتلَهم وأجاز، محتجًّا بجوازِ قتلِ الثُّلثِ لإصلاحِ الثُّلثَين[(٢)]، نزَّلَ الظنَّ منزلةَ اليقين، على ما فيه مِن البُعدِ بلا مَين.

ويحتمِلُ أن يقال: يجوزُ قتلُهم سياسةً لا شريعةً، وبابُ السياسةِ أوسَعُ من بابِ الشرعِ.

فقد قال العلماءُ المحقِّقونَ: للسلطانِ سلوكُ سبيلِ السياسةِ، ولا تتوقَّفُ السياسةُ على كلِّ ما نطقَ بهِ الشرعُ، قال العلامةُ ابنُ عَقيلٍ الحنبليُّ مِن

---

(١) يُنظر حولَ هذه المسألةِ الشائكة في كتاب «الدولةِ العثمانية المجهولة» (ص١٢٩)، و«منهلِ الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان» (٢/ ٤٤٦).

(٢) تُنسب هذه المسألة إلى الإمام مالك، وهي: جوازُ قتلِ ثُلث الأُمة لإصلاح الثُّلثين اعتبارًا بالمصلحة العامة، وهو لا يصحُّ ولا يثبت عنه، بل المالكيةُ يُنكرونه إنكارًا شديدًا، ولا يوجد في كتبهم، انظر: «نفائس الأصول» (٩/ ٤٠٩٢) للقرافي المالكي.

أصحابنـا[١]: «وهـو الحـزمُ عندَنـا»[٢].

وقال العلامةُ القَرافيُّ[٣]: «ولايةُ المظالمِ أوَّلُ مَن أحدثَها في الإسلامِ عبدُ المَلِكِ بنُ مروانَ رحمه الله تعالى، فكانَ يجلِسُ للمظالمِ يومًا يخصُّها، ويرُدُّ مشكلاتِها لأبي إدريسَ[٤] الأَوديِّ[٥]»، قال القَرافيُّ: «وله الأخذُ بالقرائنِ وشواهدِ الأحوال وغيرِ ذلكَ مما لا يأخذُ به القضاة»، انتهى كلامُ القَرافيِّ.

ونَقل شيخُ الإسلامِ تقيُّ الدِّين ابنُ تيميَّةَ[٦]: أنَّ شرائعَ الأنبياءِ قاطبةً جاءتْ بتحصيلِ المصالحِ وتكميلِها، وتعطيلِ المفاسدِ وتقليلِها.

فهي تأمرُ بما تترجَّح مصلَحتُه وإنْ كان فيه مفسدَةٌ مَرجُوحَةٌ كالجهاد.

وتَنهى عما ترجَّحتْ مفسَدتُه وإنْ كان فيه مصلحةٌ مرجوحة، كتناولِ المحرَّماتِ مِن الخمرِ وغيرِه.

فالشرائعُ الإلهية توجِبُ تحصيلَ أعظَمِ المصلحتَينِ بفواتِ أدناهما، ودفعَ أعظَمِ الفسادَينِ بأدناهُما، فكلُّ أمرَين تعارَضا فلا بدَّ أن يكونَ أحدُهما راجِحًا والآخرُ مرجُوحًا، أو يكونا متكافئَينِ، فيُحكم بينَهما بحسب الرجحانِ وبحسبِ التكافُؤ[٧].

---

(١) «الحنبلي من أصحابنا» زيادةٌ مِن (ب).

(٢) «شرح منتهى الإرادات» (٣/ ٣٦٥)، نقلاً عن ابن عَقيل في كتابه: «الفنون».

(٣) انظر: «الذخيرة» (١٠/ ٣٨).

(٤) في النسخ: «لإدريس»، والمثبتُ من المصادر الفقهيَّة.

(٥) تحرَّف هـذا النـصُّ فـي مطبوعـة «الذخيـرة»، وأشـار المحقِّـق لذلـك، فيُمكـن تصحيـحُ مـا في «الذخيـرة» مِـن هنا.

(٦) انظر: «الاستقامة» لابن تيمية: (١/ ٢٨٨).

(٧) انظر: «الاستقامة» لابن تيمية: (١/ ٤٣٤).

فأما الأمرُ الذي ترجَّحت فيه المصلحةُ المحبوبَةُ فهذا يُؤمَر به.

والأمرُ الذي ترجَّحتْ فيه المفسدةُ فهذا يُنهى عنه.

والأمرُ الذي تخلُو عنه المصلحَةُ والمفسدَةُ فهذا لا يُؤمَرُ به ولا يُنهى عنه.

وقد يكونُ الراجِحُ متفاوتًا في الأرجحيَّة، فيُقدَّمُ الأرجَحُ على الراجح(١).

فمحبَّةُ اللهِ تعالى للمُتطهِّرينَ ومحبَّتُه للنظافةِ لا تمنَعُ حصولَ المُعارضِ الراجح، مثلَ: أن يكونَ الماءُ محتاجًا إليه للعطش.

فمحبَّتُهُ تعالى لسقيِ العطشانِ راجحةٌ على محبَّتِهِ تعالى للطهارةِ والنظافة(٢).

وكذلكَ سائرُ ما يقعُ فيه التزاحمُ مِن الواجباتِ والمستحبَّات، فيُقدَّمُ عندَ التزاحمِ الأحبُّ إلى اللهِ تعالى، فيقدِّمُ مَن يريدُ الحجَّ فداءَ مسلمٍ بمالٍ يُرادُ قتلُه على مالٍ ظلمًا.

وعلى هذا استقرَّتِ الشريعَةُ بترجيحِ خيرِ الأمرَين، ودفعِ شرِّ الشرَّين، وترجيحِ الراجحِ مِن الخيرِ والشرِّ المُجتمِعَين(٣).

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، وقد دلَّ الشرعُ والعقلُ على وجوبِ تحصيلِ المصالحِ وتكميلِها، وإعدامِ المفاسدِ وتقليلِها.

إذا علمتَ هذا فينبغِي القولُ بجوازِ القتلِ إذا صارَ الغلامُ مراهقًا مع القرائنِ الدالَّةِ على الفتنَة؛ لأنهُ حينئذٍ صارَ مَظِنَّةَ الفسادِ والفِتن، وأما قبلَ ذلكَ فلعلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ ذلك أمرًا.

(١) انظر: «الاستقامة» لابن تيمية (١/ ٤٣٥).

(٢) انظر: «الاستقامة» لابن تيمية (١/ ٤٣٨).

(٣) انظر: «الاستقامة» لابن تيمية (١/ ٤٣٩).

وأما عندَ الخوفِ فربما يجوزُ القتلُ مِن هذه الحيثيةِ عملًا بالقرائنِ وشواهدِ الأحوالِ قبلَ أن يتَّسِعَ الخرقُ ويَعظُمَ الخَطْبُ، ويَشتدَّ الندمُ والكرب.

هذا السلطانُ سليمانُ في أوَّلِ توليتِه شَرعَ في قتلِ أولادِه خوفَ الفتنِ والخروجِ عليهِ، وأرسلَ أمرًا بإحضارِ ولدِه مصطفى بعدَ توجُّهِهِ إلى تبريزَ[١] لأخذِ العجم، فأمرَ بخَنقِه، ثمَّ تحيَّلَ على تحصيلِ ولدِه بايزيدَ بعدَ أنْ وقعَتْ فتنٌ قُتِلَ فيها نحوُ خمسين ألفًا، ولا ريبَ أنَّ قتلَ واحدٍ أسهَلُ مِن عشرةٍ، فكيفَ بخمسِينَ ألفًا؟!

وهذا مولاي أحمدُ سلطانُ الغربِ[٢] لما مات وتركَ أولادَه فاقتتَلُوا بعدَه على المُلْك، وحصلتْ فِتنٌ قُتِلَ فيها أُلوفٌ لا تُحصى مِن المسلمين، وذهبَ بعضُ أولادِه إلى الفِرنجِ واستعاذ بهم وأَطمعَهم في بلادِ المسلمين، وسلَّمَهم مدينةَ العرائشِ[٣] وهي مدينةٌ عظيمَةٌ مِن مدائن المسلمين، وهي بأيدي الفِرنجِ إلى يومنا هذا، وهي بهذا السببِ سلطنةُ المغرب، ولم تَزل الأمورُ في التخبُّطِ[٤] بالمغربِ إلى الآن.

ولو قَتل مولاي أحمدُ أولادَه إلا واحدًا كسلاطينِ بني عثمانَ لما صارَ شيءٌ من ذلكَ ولا كان، ولكنْ ليقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا، ويَحكم ما يريد في خلقه وكلُّ أمرٍ لا بدَّ وأنْ يكونَ مسؤولًا.

***

---

(١) مدينة تبريز: هي مِن أكبر المدن في إيران، وتقع غربَ أذربيجان الشرقية.

(٢) أحمد بن محمد السَّعدي (ت٩٦٥) مؤسِّس الدولة السَّعدية، انظر: «الأعلام» (١/ ٢٣٤).

(٣) مدينة العرائش: تقع على الساحل المغربي بينَ طنجةَ والرِّباط.

(٤) يوجد تحريفٌ ببعض النسخ هنا.

[إجلالُ العلماءِ والصلحاءِ وعدمُ إهانتِهم]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

إجلالُ العلماءِ واعتقادُ الصلحاء، وإكرامُ أهلِ القرآنِ، فلم يُنقَلْ عنهم ولم يُسمَع منهم إهانةُ أحدٍ مِن العلماءِ حقيقةً[1]، بخلافِ غيرِهم مِن الملوكِ والخلفاءِ، فقد آذَوا كثيرًا مِن العلماءِ والأئمَّة، وأهانوهم وقَتلُوهم، وفَعلوا بهم أنواعًا مِن الحقارات.

[مِحنةُ الإمام أبي حنيفة]:

هذا الإمامُ أبو حنيفةَ عليه الرحمةُ والرِّضا والرضوان، مع جلالةِ قدرِه ووُفورِ علمِه وورعِه، قد حَصَل له مِن الخليفةِ أبي جعفرٍ المنصورِ ما حَصل، ووَقعَ له معه ما وَقعَ، كما ذَكرتُ ذلكَ في كتابي: «تنوير بصائرِ المقلِّدينَ في مناقبِ الأئمَّةِ المجتهدين».

رَوى الحافظُ الخطيبُ[2] وأبو محمدٍ الحارثيُّ وغيرُهما عن جماعةٍ مِن الرواة دخلَ كلامُ بعضِهم في بعضٍ: أنَّ الخليفةَ أبا جعفرٍ المنصورَ طلبَ الإمامَ أبا حنيفةَ مِن الكوفةِ إلى بغدادَ، وطَلبَ منه أنْ يليَ القضاءَ، وتكونَ قضاةُ الإسلامِ مِن تحتِ يدِه، فاعتلَّ أبو حنيفةَ بعِللٍ لم تُقبَل منه، وحَلفَ الخليفةُ أنه إنْ لم يَفعلْ ليحبِسنَّه، فأَبى الإمام أبو حنيفةَ فحبسَه، وأَمرَ بأنْ يُخرجَ كلَّ يومٍ فيُضربَ عشرةَ أسواطٍ، ويُنادى عليه في الأسواقِ، فصارَ يُضربُ الضَّربَ الشديد، ويُنادى عليه في الأسواقِ والدمُ يَسيلُ على عقبَيه، ويُعادُ إلى الحبسِ، وضُيِّق عليه تضييقًا شديدًا في الطعام والشرابِ والحبس.

---

(١) لو تتبَّع المرءُ كُتبَ التاريخِ والتراجم، لوَجد مِن تعظيم سلاطينِ آلِ عثمانَ للعِلم وأهلِه وطلبتِه الشيءَ الكثير.

(٢) انظر: «تاريخ بغداد» (١٥/ ٤٤٤).

وفُعِلَ به جميعُ ذلك في عشرةِ أيامٍ كلَّ يومٍ عشرةُ أسواطٍ، فلما تتابعَ عليهِ الضربُ بَكى وأكثرَ الدعاءَ، فمَكثَ بعدَ ذلك خمسةَ أيامٍ، وماتَ رحمه اللهُ، وذَكروا أنه مات مسمُومًا غريبًا مظلومًا رحمه الله تعالى.

رَوى أبو محمدٍ الحارثيُّ: أنه رُفع إلى أبي حنيفةَ قدحٌ فيه سمٌّ، فأُكرِه على شُربِه مرّاتٍ فأَبى، وقال: إني لأعلَمُ ما فيه، فلا أُعينُ على قتلِ نفسي، فطُرِحَ ثم صُبَّ في فيه، ثم خُلِّيَ عنه.

ورَوى الحارثيُّ عن نُعَيمٍ عن يحيى قال: «مات أبو حنيفةَ رحمه اللهُ غريبًا مَسمومًا»[1].

وفي بعضِ الروايات: أنَّ أبا حنيفةَ لما حَضرَ بينَ يدَي أبي جعفرٍ دعا له بسَويقٍ وأَمره بشُربِه، فامتنعَ فقال له: لتشربنَّه، فأكرَهه حتى شرِبَه، ثمَّ قامَ مبادِرًا فقال له أبو جعفرٍ: إلى أين؟ قال: إلى حيث بعثتني، فمُضي به إلى السجنِ فمات فيه.

قال بعضُهم: وفي الحقيقةِ إنَّ أبا جعفرٍ إنما أَرسلَ إلى الإمام أبي حنيفةَ وأَحضرَه مِن الكوفةِ إلى بغدادَ ليقتلَه لا ليُبقيَه.

وسببُ ذلك: أنَّ إبراهيمَ بنَ عبدِ الله بنِ الحسنِ بن عليٍّ بن أبي طالبٍ لما خَرجَ على أبي جعفرٍ المنصورِ بالبصرةِ خافَ منه خوفًا شديدًا، فدسَّ بعضُ أعداءِ أبي حنيفةَ إلى أبي جعفرٍ أنَّ أبا حنيفةَ مساعدٌ لإبراهيمَ[2]، فطلبَه أبو جعفرٍ لذلك، وأحضرَه إلى بغدادَ، ولم يَجسُرْ على قتلِه بلا سببٍ، فطَلب منه أن يكونَ قاضيًا لعلمِه أنَّ أبا حنيفةَ لا يَقبَلُ، وتوصَّلَ بذلكَ إلى قتلِه، ومكَثَ رحمه اللهُ في مدَّةِ العقوبةِ خمسةَ عشرَ يومًا ثم ماتَ، وذلك في سنة: مئةٍ وخمسينَ رحمه الله.

---

(١) قال الذهبيُّ في «السير» (٦/ ٤٣٠): «تُوفي أبو حنيفةَ شهيدًا مَسْقيًّا».

(٢) انظر: «تاريخ بغداد» (١٥/ ٤٤٤).

[مِحنةُ الإمامِ مالك]

وهذا الإمامُ مالكٌ رحمه اللهُ إمامُ دارِ الهجرَةِ، وناهيكَ به، ضُرِبَ بالسِّياطِ، ومُدَّتْ يداهُ حتى انخلَعَ كتفاهُ، وارتُكِبَ منه أمرٌ عظيمٌ، وحُمِلَ على بعيرٍ، وطِيفَ به في المدينة.

قال العلامةُ الحَطّابُ[١] إمامُ المالكيَّةِ: «اختُلِفَ في مَن ضَربَ الإمامَ مالكًا، وفي سببِ ضربِه؟ قال: والأشهر أنَّ جعفرَ بنَ سليمانَ عاملَ المدينةِ هو الذي ضَربه.

وسببُ ذلك: أنَّ الخليفةَ أبا جعفرٍ نهاه عن حديثِ: «ليس على مُستكرَهٍ طلاقٌ»[٢]، ثمَّ دَسَّ إليه مَن سألَه، فحدَّثَ به على رؤوسِ الناس».

ولما طِيفَ به في ضربِه على البعيرِ صار يُنادِي: «ألا مَن عَرفني فقد عَرفني، ومَن لم يعرفْني فأنا أُعرِّفه بنفسي، أنا مالكُ بن أنس، وأقولُ: إنَّ طلاقَ المكرَهِ ليسَ بشيءٍ»[٣].

وقيل: إنه أَفتى عندَ قيامِ محمدِ بن عبدِ الله العلويِّ بأنَّ بيعةَ أبي جعفرٍ لا تُلزِمُ؛ لأنها على الإكراهِ، وعلى هذا أكثرُ الرُّواة[٤].

واختُلِفَ في مقدارِ ضربِه مِن ثلاثينَ إلى مئةٍ، ومُدَّت يداهُ في الضربِ حتى انخلَعَ كتفاه، وبقيَ بعدَ ذلكَ بطّالَ اليدَينِ لا يستطيعُ أنْ يَرفعَهما، ولا أنْ يُسوِّيَ رداءَه، ولم يكن بعدَ ذلك يشهَدُ الصلاةَ في مسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ، ولا الجمعةَ

---

(١) «مواهب الجليل» (١/ ٢٨).

(٢) انظر: تخريجَ الحديثِ في «التلخيص الحبير» (٣/ ٤٣٦).

(٣) «حلية الأولياء» (٦/ ٣١٦).

(٤) انظر: «مواهب الجليل» (١/ ٢٨).

والجماعةَ، واحتمَلَ الناسُ ذلك منه، وكان ربما كُلِّمَ في ذلكَ فيقول: «ليس كلُّ أحدٍ يقدِرُ أنْ يَتكلَّمَ بعذرِه».

قال في «مختصَرِ المدارِك»[1]: «لما حَضرتْه الوفاةُ سُئلَ عن سبَبِ تخلُّفِه عن المسجدِ، وكان تخلُّفُه عنه سبعَ[2] سنينَ، فقال: لولا أني في آخرِ يومٍ مِن الدنيا، وأوَّلِه مِن الآخرةِ ما أخبرتُكم، منعني سلَسُ بولي، فكرِهتُ أنْ آتيَ مسجِدَ رسولِ اللهِ ﷺ، وكَرِهتُ أنْ أذكُرَ عِلَّتي فأشكوَ ربِّي».

وقيل[3]: كانَ اعتراهُ الفتقُ مِن الضَّربِ الذي ضُرِبَه، فكانتِ الرِّيحُ تَخرجُ منه، فقال: إني أُوذِي[4] المسجدَ والناسَ، وماتَ في سنةِ: تسعٍ وسبعينَ ومئةٍ رحمه اللهُ تعالى.

***

---

(١) انظر: «ترتيب المدارك» (٢/ ٥٥).

(٢) كلمة: «سبع» غيرُ موجودةٍ في «ترتيب المدارك».

(٣) انظر: «ترتيب المدارك» (٢/ ٥٦).

(٤) الذي في «ترتيب المدارك»: «وكرهتُ أنْ أُوذي».

[مِحنةُ الإمامِ الشافعي]

وهذا الإمامُ محمدُ بنُ إدريسَ الشافعيُّ رحمه اللهُ تعالى، ناصِرُ الحديث، وناهيكَ به عِلمًا واجتهادًا، قد حُملَ في الحديدِ مِن اليمنِ إلى بغدادَ.

قال الكرابيسيُّ(١): «سمعتُ الشافعيَّ يقولُ: كَتب مطرِّفٌ إلى هارونَ الرَّشيد: إنْ أردتَ اليمنَ لا يَفسدُ عليكَ فأَخرِج عنا محمدَ بنَ إدريسَ، وذَكر أقوامًا مِن الطالبيينَ، قال: فبَعث إلى حمّادٍ البربريِّ، فأُوثقتُ في الحديد، فقدِمْنا على هارونَ الرشيدِ بالرقة».

وقال الربيعُ(٢): «إنَّ الشافعيَّ قال: خَرجتُ إلى اليمنِ فأَقمتُ بها أشهرًا(٣)، وارتفَع لي بها شأنٌ، وكان بها والٍ مِن قِبلِ الرَّشيد، وكان ظَلُومًا غَشُومًا، قال: فكنتُ ربما منعتُه مِن الظلم، وكان باليمنِ جماعةٌ مِن العلويينَ قد تحرَّكوا للخروجِ على الرشيد، فكَتب الوالي إلى الرشيد: إنَّ العلويةَ قد تحرَّكوا وأَرادُوا أنْ يَخرُجوا، وإنَّ هاهُنا رجلًا مِن ولد شافعِ بن السائبِ مِن ولَدِ المطلِّبِ، لا أَمرَ لي معَه ولا نهيَ.

فكتبَ إليه الرشيدُ: أنْ يَقبِضَ عليهم وعليه، قال: فقُرِنتُ معهم، فلمّا قَدِموا على الرشيدِ أَمرَ بقتلِ العلويةِ فقُتِلوا، وكاد الشافعيُّ يُقتَلُ معهم، لولا أنَّ اللهَ لَطفَ به؛ لعلمِه وفصاحَةِ لسانِه»(٤).

---

(١) الخبر بطوله في «حلية الأولياء» (٩/ ٧٠).

(٢) الخبر في «تاريخ دمشق» لابن عساكر: (٥١/ ٢٨٦)، و«معجم الأدباء» (٦/ ٢٣٩٦).

(٣) «أشهرًا» ليست في المصادر التاريخية.

(٤) وكان قد شَفع للإمام الشافعيِّ عندَ الرَّشيدِ الإمامُ محمدُ بنُ الحسنِ الشيبانيُّ، حتى قال الإمام الشافعي: «فأَخذني محمدٌ، وكان سببَ خلاصي»، انظر: «الانتقاء» لابن عبد البر: (ص١٥٥).

[مِحنةُ الإمامِ أحمد]

وهذا الإمامُ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ حنبلٍ رضي الله عنه إمامُ السنَّةِ ـ معَ علمِه وزُهدِه وورَعه ـ قد حُمِلَ في الحديدِ مِن بغدادَ إلى طَرَسوسَ بأرضِ الرُّومِ، إلى الخليفةِ المأمون؛ ليعترِفَ عندَه أنَّ القرآنَ مخلوقٌ.

قال أحمدُ[1]: «فلما قدِمنا عليه خَرجَ إلينا خادِمٌ وهو يَمسحُ عن وجهِه بكُمِّهِ ويقولُ: عزَّ عليَّ يا أحمدُ ما حلَّ بكَ، قد جرَّدَ أميرُ المؤمنينَ سيفًا لم يُجرِّدْه قطُّ، وبَسطَ نِطعًا[2] لم يَبسطْهُ قطُّ، وهو يقولُ: وقرابتي مِن رسولِ اللهِ ﷺ لا رَفعتُ سيفي هذا عن أحمدَ حتى يقولَ: القرآنُ مخلوقٌ».

قال الخادم: فنظرتُ إلى أحمدَ وقد بركَ على رُكبَتيه ولَحَظَ السماءَ بعينَيه، ثم قال: «غرَّ هذا الفاجرَ حِلْمُك[3] حتى يتجرَّأَ على أوليائك بالضربِ والقتل، فإنْ يكُنِ القرآنُ كلامُكَ غيرَ مخلوقٍ فاكفِنا مُؤنتَه»، قال: «فواللهِ ما مضى الثُّلثُ الأولُ مِن الليلِ إلا ونحن بصيحةٍ وضجَّةٍ، وإذا قاصِدُ المأمونِ قد أَقبلَ علينا فقال: صدقتَ يا أبا عبدِ الله، القرآنُ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، وقد ماتَ واللهِ أميرُ المؤمنينَ»، يعني: وكُفيتَ مُؤنتَه.

ولما ماتَ المأمونُ رُدَّ الإمامُ أحمدُ إلى بغدادَ مقيَّدًا، فسجنَه الخليفةُ المعتصِمُ باللهِ أخو المأمونِ، وعاقبَه أشدَّ العقابِ على أنْ يقول: القرآنُ مخلوقٌ، ثم أَحضرهُ يومًا للعقوبة في نهارِ رمضانَ، وأَحضرَ الجلّادينَ قال: أَروني سِياطَكم فنَظرَ إليها،

---

(١) انظر الخبرَ بطُولِه في «حلية الأولياء» (٩/ ١٩٤).

(٢) النِّطْع: البِساط مِن الجلد.

(٣) جاءت العبارةُ في النُّسخ هكذا: «علا عن هذا الفاجر حكمك»، والمثبتُ مِن المصادر التاريخية.

ثم قال: ائتوني بغيرِها، فأَتوه بغيرِها ثم قال: تقدَّموا، فمدُّوا يدَيه حتى تخلَّعتْ، ثم أمرَهم بضربِه، وصارَ المعتَصِمُ يقولُ للجلادِين: شُدُّوا قطَّعَ اللهُ أيديَكم.

قال أحمدُ: «فذهَب عقلِي وأكبُّوني على وجهي، وأنا لا أشعرُ بذلك».

وذَكر البيهقيُّ(١): أنَّ الإمامَ أحمدَ قال في أولِ سوطٍ ضُربه: «باسم اللهِ»، وفي الثاني: «توكَّلتُ على اللهِ، وهذا في رضا اللهِ»، وفي الثالثِ قال: «ما شاءَ اللهُ كان وكلُّ شيءٍ عندَه بمقدارٍ»، وفي الرابعِ قال: «لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ»، وفي الخامسِ قال: «يا أميرَ المؤمنينَ، إنك موقوفٌ ومُساءَلٌ عني بينَ يدَي ربٍّ لا يَظلِمُ، ويأخذُ للمظلومِ مِن الظالم»، وفي السادسِ قال: «يا أميرَ المؤمنينَ، سألتُكَ باللهِ وبالدارِ الآخرةِ»، كلُّ ذلك لا يرفَعُ رأسَه إليه، وفي السابعِ قال: «يا أميرَ المؤمنينَ، اذكُر وُقوفَك بينَ يدَي اللهِ تعالى كوُقوفي بينَ يديكَ، لا تستَطيعُ منعًا، ولا عن نفسِكَ دفعًا».

ولقد حَكى بعضُ الجلّادينَ قال: «لقد غَلب أحمدُ بنُ حنبلٍ الشُّطّارَ(٢)، لقد ضربتُه ضربًا لو أَوقعتُه ببعيرٍ لَنقبْتُ عن جوفِه».

وقال آخرُ: «لقد ضربتُه ثمانينَ سوطًا لو وقعتْ بفيلٍ لهدَّته لشدَّتِها».

وكانت مدَّةُ إقامةِ الإمامِ أحمدَ في الحبسِ والضربِ: ثمانيةً وعشرينَ شهرًا.

---

(١) الإمام أبو بكر البيهقي له كتابٌ في مناقب الإمام أحمد، ولكنْ لم أَعثر عليه، ذكره الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ» (٣/ ٢١٩)، وقد ذكر هذه القصةَ نقلًا عن البيهقيِّ القاضي السعديُّ الحنبلي (ت٩٠٠) في «الجوهر المُحصَّل في مناقب الإمام أحمدَ بنِ حنبل» (ص٦٣).

(٢) الشُّطار: جمع شاطرٍ، ومِن معانيه: الشجاعُ الذي يَحتقر الألم، انظر: «تكملة المعاجم العربية» (٦/ ٣١٠).

وفي روايةٍ: مَكثَ في السِّجنِ ثلاثَ سنين، واستمرَّ أثرُ الضربِ بيِّنًا بظهرِه إلى أنْ ماتَ رحمه الله تعالى.

ولما ماتَ المُعتصِمُ وتولى ابنُه الخلافةَ الواثقُ باللهِ أَرسلَ إلى الإمامِ أحمدَ يقولُ له: «لا تَجمعَنَّ إليك أحدًا، ولا تُساكنِّي في بلدٍ أنا فيه»، فأقامَ الإمامُ أحمدُ مُختفيًا حتى ماتَ الواثق.

وكانت مدةُ ولايتِه: خمسَ سنينَ وشهرينِ، ومدةُ ولايةِ المُعتصِم: ثماني سنينَ وشهرَينِ وأيامًا.

وكان الواثقُ قد حَملَ الأئمَّةَ على القولِ بخلق القرآنِ، وشدَّدَ في ذلكَ، وقَتلَ مِن العلماء خلائقَ، وحُمِلَ إليه الإمام البُويطِيُّ صاحِبُ الشافعيِّ في الحديدِ مِن مصرَ إلى بغدادَ، فحُبِسَ إلى أنْ مات.

قال الربيعُ: «رأيتُ البُويطيَّ على بغلٍ في عنُقهِ غُلٌّ، وفي رجلَيه قَيدٌ، وبينَ الغُلِّ والقيدِ سِلْسِلَةُ حديدٍ، فيها طوبةٌ وزنُها أربعونَ رِطلًا[1]»[2].

وحُمِلَ إليه أيضًا الإمامُ الجليلُ نُعيمُ بنُ حمّادٍ بالحديدِ مِن مصرَ إلى بغدادَ، فحُبِسَ حتى مات[3].

وحُمِلَ إليه الإمام الجليلُ أحمدُ بنُ نصرٍ[4] شيخُ يحيى بنِ مَعينٍ وغيرِه

---

(١) الرِّطل بحدود (٣٠٠غ)، أي: كان وزنُ الطُّوبةِ ما يُعادل: (١٢كغ) تقريبًا، انظر: «الإيضاحاتِ العصريةَ للمقاييس والمكاييل والأوزان والنقود الشرعية» (ص١٧٧).

(٢) «الوافي بالوفيات» (٢٩/ ١٦٥).

(٣) يوجد سقطٌ هنا في النسخة (ش).

(٤) الإمام الكبير الشهيد أبو عبد الله أحمدُ بنُ نصرٍ الخزاعي (ت٢٣١)، انظر ترجمتَه وقصةَ قتلِه وما جَرى له مِن البشائر بعدَ مقتلِه في «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٦٦).

مِـن الأئمَّـة، فدعـاه الواثـقُ إلـى القـولِ بخلـقِ القـرآنِ فأَبـى، فأَمـرَ بضـربِ عُنقِه، فضُـرِبَ وحُمِـلَ رأسُـه إلـى بغـدادَ، فنُصـبَ فـي الجانـبِ الشـرقيِّ أيامًـا، وفـي الجانـبِ الغربـيِّ أيامًـا.

ومَن أرادَ المزيدَ مِن هذا وما وقعَ للأئمةِ خصوصًا الأربعةِ فليراجع كتابي: «تنويرُ بصائرِ المُقلِّدِين في مناقبِ الأئمةِ المجتهِدين».

ولقد نَقل بعضُهم: أنَّ بعضَ الخلفاءِ قَتلَ سبعَمئةِ عالمٍ لامتِناعهم من القولِ بخلقِ القرآن.

وقـال أبـو الحسـنِ القابسـيُّ[1]: «إنَّ الذيـن قتلهـم عُبيـد الله ـ يعنـي: سـلطانَ المغـرب ـ العلـويُّ وبنـوه مِـن العلمـاء والعبـادِ أربعـةُ آلافِ رجـلٍ؛ ليَردُّوهـم عن الترضـي عـن الصحابـة رضـي الله عنهم».

وإذا تدبَّرَ العاقلُ دولةَ بني عثمانَ وما العلماءُ فيه مِن الإجلالِ والإكرام، والتوقيرِ والاحترام، معَ الأرزاقِ الواصِلةِ إليهم، والوظائفِ الجارِيةِ عليهم، عِلمَ أنَّ أيامَهم خيرُ أيامٍ، وزمانَهم خيرُ زمانٍ، لولا ما يَحصلُ مِن حواشِيهم وقضاتِهم بغيرِ عِلمهم مِن الظلمِ للرعايا، والجَورِ في القضايا، ولكن المصائبُ والبلايا والنوائبُ والرزايا بعضُها أخفُّ مِن بعضٍ، والتي وقعتْ في زمنِ غيرِهم لم يقعْ شيءٌ منها في زمنهم، بل العلماءُ عندَهم في غايةِ التعظيمِ والتبجيلِ والتكريمِ، ولعلَّ بهذا السببِ دامَتْ دَولتُهم، وارتَفعتْ كلمتُهم.

* * *

---

(١) أبو الحسن عليُّ بنُ محمدٍ القابسي (ت٤٠٣) صاحب «ملخَّص الموطأ» وغيرِه، انظر: «الأعلام» (٤/ ٣٢٦)، ونقل كلامَ القابسيِّ هذا الذهبيُّ في «السير» (١٥/ ١٤٥).

[حكايةُ أميرِ بخارى مع أحدِ العلماءِ]

حَكى صاحبُ كتابِ «جامعِ الحكاياتِ ولامِعِ الرِّواياتِ»[(١)]: أنَّ السلطانَ إسماعيلَ صاحبَ بخارى وممالكِ ما وراءَ النهرِ[(٢)]، استأذنَ عليه بعضُ العلماءِ فأَذِن له، فلما دَخلَ عليه قامَ السلطانُ له، واستقبَله حافيًا سبعَ خطواتٍ، ثمَّ أَجلسَه معَه على مِنصَّته، وأَصغى إلى كلامه، وعظَّمه تعظِيمًا بالغًا، وقَضى حوائجَه، فلما قامَ ذلكَ العالمُ نهضَ السلطانُ معه مقدارَ سبعِ خطواتٍ، وكان أخوهُ إسحاقُ حاضرًا فقال له: يا أخي، لقد أَوهنتَ نامُوسَ المُلْكِ، ووضعتَ مِن جانبِه، قال: بماذا؟ قال: بما فعلتَ معَ هذا الفقيهِ مِن التعظيمِ والمشيِ قُدّامَه، وحشمةُ المُلْكِ والسَّلْطنةِ تَقتَضي الوقارَ والسُّكون، وعدمَ الاكتراثِ بالناس، فإذا فعلتَ مثلَ هذا معَ واحدٍ مِن آحادِ الفقهاءِ فقد أَضعتَ حِشمةَ المُلْكِ.

فقال إسماعيلُ: يا أخي، إنَّ عزةً تزولُ بتعظيمِ العِلمِ والعلماء، ومُلْكًا يَحصلُ له الوهْنُ وكِسرةُ الناموسِ[(٣)] بإكرامِ ورثةِ الأنبياء لجديرٌ ألا يكون، وحقيقٌ أنْ يَذلَّ ويَهون، أنا ما عظَّمتُ هذا الرجلَ، وإنما عظَّمتُ العِلمَ الذي شرَّفَه اللهُ تعالى به.

---

(١) «جامع الحكايات ولوامع الروايات»: لجمال الدِّين محمدٍ العوفي، كتابٌ طريفٌ بالفارسية، يشتمل على خمسةِ أقسام، ويبحث عن التوحيد والأنبياء والأولياء والمُلوك، ولطائفِ كلماتهم وطرائفِ حكاياتهم، وعن الأخلاق ومكارمِها والمذمومِ منها، وفيه: حكاياتٌ لعجائب البحار وطبائعِ الحيوانات، تاريخُ تأليفِه عام: (٦٢٥هـ)، كذا في «مجلة لغة العرب العراقية» (٧/ ٢٢١)، وذَكر في «كشف الظنون» (١/ ٥٤٠): أنَّ هذا الكتابَ تُرجم إلى التركية أكثرَ مِن مرَّةٍ بأمرٍ مِن سلاطين آل عثمان.

(٢) هو إسماعيل بنُ أحمدَ الساماني (ت٢٩٥) أميرُ بلادِ ما وراءَ النهر، وانظر أخبارَه وأخبارَ أخيه في «كنز الدرر وجامع الغرر» (٥/ ٣٢٢)، و«الأعلام» (١/ ٣٠٨).

(٣) لعل الناموسَ هنا بمعنى: القوانينِ والتراتيب، انظر: «تكملةَ المعاجم العربية» (١٠/ ٣١٤).

فلما نـامَ السـلطانُ إسـماعيلُ تلـكَ الليلـةَ رأى فـي منامِـه النبـيَّ ﷺ وهـو مُستبشِـرٌ فقـال لـه: «يـا إسـماعيلُ، أكرمـتَ عالمًا مِـن علمـاءِ أُمَّتي، ومشَـيتَ معه سـبعَ خطواتٍ، فسـيَملكُ مِن ولـدِكَ بعدَكَ سـبعةُ بنينَ، ويكـونُ المُلْكُ فـي ذريَّتكَ إلـى سـابعِ ولـدِك، وأما أخوك إسـحاقُ: فليس له فـي المُلْكِ نصيـبٌ»، وكان الأمرُ كذلـكَ، وهـو أمـرٌ عجيب!

* * *

[احترام الأشراف]

وَمِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

تعظيمُ الأشرافِ العلويِّينَ، والسادةِ البكريِّين، ومُعامَلتُهم بالإجلالِ والتعظيم، والإنعامِ والتكريم(١).

فانظُر إلى تعظيمِ البكريَّةِ والسادةِ الوفائيةِ بمصرَ المحميَّةِ.

وكذلكَ تعظيمُ الأشرافِ، وآلِ عبدِ منافٍ، بديارِ الرُّومِ وبقيَّةِ البُلدانِ، مع أنهم كانوا في زمَنِ بني أُميةَ وبني العبَّاسِ في غايةِ الذلِّ والهوانِ، والطَّردِ والحِرمانِ.

هذا الحسنُ والحسينُ، وزينُ العابدِينَ، وجعفرٌ الصادِقُ، وموسى الكاظِمُ، ومحمدٌ الباقِرُ، ومحمدٌ الجوادُ، وعليٌّ الرِّضا، وعليٌّ الهادِي، والحسَنُ العسكريُّ، وزيدُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهم أجمعين: قد مضَوا لسبيلِهم ما بينَ مَقتولٍ ومَسموم، ولو ذَكرنا تفصيلَ ما فُعِلَ بجميعِ أهلِ البيتِ في أيامهم، وما ذاقوه مِن القتلِ والهوانِ في زمانهم لطالَ ذِكرُه، ولما أَمكنَ حصرُه.

وأما ما يُذكرُ مِن أنَّ الحجَّاجَ بنَ يوسفَ أراد قتلَ الأشرافَ وأرادَ قطعَ دابرِهم:

فقال العلامةُ الحافظُ ابنُ تيميَّةَ وناهيكَ به علمًا: «هذا مِن الجهلِ بأحوالِ الناس؛ فإنَّ الحجَّاجَ كان أميرًا(٢) سفَّاكًا للدماءِ، قَتلَ خلقًا كثيرًا، ولكنْ لم يَقتُل

---

(١) نال السادةُ الأشراف مكانةً مرموقةً في الدولة العثمانية، فكانت لهم نقابةٌ تَمنحهم شهاداتٍ تُوثِّق نسبَهم، ويُعطون بعضَ المزايا والعطايا في الدولة، وأوَّلُ منصبٍ لنقابة الأشراف زمنَ العثمانيينَ كان في زمن السلطان بايزيد الأول، في حدود سنةِ: (٨٠٢هـ)، انظر: «الدولةَ العثمانية تاريخ وحضارة» (١/ ٣٠٣).

(٢) الذي في «مجموع الفتاوى»: «مُبيرًا».

مِن الشرفاءِ مِن بني هاشمٍ أحدًا قطُّ، بل سلطانُه عبدُ المَلِكِ بن مروانَ نهاهُ عن التعرُّضِ لبني هاشم».

قال: «ومِن الكذبِ أيضًا ما يُنقَلُ مِن سبيِ نساءِ أهلِ البيتِ في أيامِ يزيدَ بنِ معاويةَ، وإركابِهنَّ على الإبلِ عرايا، حتى نبتَ لها سنامانِ لسترِهنَّ وهي البَخاتي[(١)]، بل المسلمونَ مِن لدُنْ محمدٍ ﷺ إلى يومنا هذا لم يَفعلُوا ذلكَ بسبيِ الكفارِ، فضلًا عن نساءِ آحادِ المسلِمين، فضلًا عن أهلِ البيتِ».

قال: «وكلُّ عاقلٍ يعلَمُ أنَّ الإبلَ البَخاتي كانت مخلوقةً[(٢)] موجودةً قبلَ أنْ يَبعثَ الله محمدًا ﷺ، وقبلَ وُجودِ أهلِ بيتِه، كغيرِها مِن الإبلِ والبقرِ والغنمِ والخيلِ والبغالِ»[(٣)].

وأطالَ الكلامَ على ذلكَ، بما قد بيَّنتُه في غيرِ هذا الموضِعِ مبسوطًا.

واعلَمْ أيَّدكَ اللهُ تعالى: أنَّ تعظيمَ الأشرافِ ومَن شاكلَهم فإنما هو إذا لم يأتوا فِعلًا يُوجِبُ الحدَّ، فإنْ فَعلوا وجب إقامتُه عليهم، فإنَّ الواجبَ أنْ تُقامَ حدودُ اللهِ على المَشروفِ والشريف، والقويِّ والضعيف.

ولما شَفَع الصحابةُ رضيَ الله عنهم عندَ النبيِّ ﷺ في المرأةِ المخزوميَّة، التي أرادَ النبيُّ ﷺ قطعَ يدِها غضِبَ، وقال لأسامةَ بنِ زيدٍ: «أتشفَعُ في حدٍّ مِن حدودِ اللهِ؟! إنما هَلكَ بنو إسرائيلَ أنهم كانوا إذا سَرقَ فيهم الشريفُ تركوه، وإذا سَرقَ فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِه: لو أنَّ

---

(١) البُختي: هو جملٌ طويلُ العنق، وتُجمع على بُختٍ وبَخاتي، انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ١٠١).

(٢) «مخلوقة» زيادةٌ مِن (ب)، وهي موجودةٌ في «مجموع الفتاوى».

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٠٢).

فاطمـةَ بنـتَ محمَّدٍ سـرقَتْ لقطعـتُ يدَها»، وقَطـع يـدَ المخزوميَّة[١].

فهؤلاءِ الأشرافُ إذا فَعلوا ما يُوجِبُ الحدودَ أو فَعلوا المحرَّماتِ، أو انتَهكُوا الحُرماتِ، فإنَّ الواجِبَ على السلطانِ أنْ يُقيمَ الحدودَ عليهم، وأنْ يُخرِجَ مِن حقِّهم، ولو كانوا بمكةَ المشرَّفةِ داخلَ الحَرمِ الشريفِ.

فقد ذَكر القاضي أبو بكرِ ابنُ العربيِّ إمامُ المالكيَّةِ: أنهُ لو تغلَّبَ في الحَرم كفارٌ أو بغاةٌ وجبَ قتالُهم فيه بالإجماع[٢].

ونقلَ الإمامُ النوويُّ رحمه اللهُ تعالى في «تهذيبِ الأسماءِ واللُّغاتِ»[٣] عن الماوَردِيِّ[٤] إمامِ الشافعيَّة: «أنَّ بعضَ الفقهاءِ قال: لا يجوزُ قتالُ أهلِ البغيِ بالحَرمِ، ويُضيَّقُ عليهم حتى يَرجِعوا عن بَغيهم، قال: والذي عليه أكثرُ الفقهاءِ أنهم يُقاتلونَ على بَغيِهم إذا لم يُمكِن ردُّهم إلا بالقتال؛ لأنَّ قتالَ أهلِ البغي مِن حقوقِ اللهِ تعالى التي لا يجوزُ إضاعتُها، ولأنْ يكونَ حقُّ اللهِ محفوظًا في الحَرمِ أولى مِن أن يكونَ مُضيَّعًا فيه».

قال الإمامُ النوويُّ[٥]: «وهذا الذي ذَكره الماوَردِيُّ هوَ الصحيحُ، وقد نصَّ عليه الشافعيُّ رضي اللهُ عنه في «الأمِّ»[٦]»، انتهى.

ولأنَّ مَن استخفَّ بالحَرمِ وامتَهنَ حُرمتَه فالواجبُ عقوبةً أنْ يُمنعَ بركتَه، كيف لا؟ والله سبحانَهُ يقولُ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤/ ١٧٥)، و«صحيح مسلم» (٣/ ١٣١٥).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» (١/ ٣٧٣).

(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» (٣/ ٨٣).

(٤) «الأحكام السلطانية» (ص٢٥١).

(٥) «تهذيب الأسماء واللغات» (٣/ ٨٤).

(٦) انظر: «الأم» (٤/ ٣٠٩).

وروى الإمامُ الأثرَمُ[١] بإسنادِه عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أنهُ قال: «مَن أحدَثَ حَدثًا في الحرمِ أُقيمَ عليه ما أَحدثَ فيه مِن شيءٍ»[٢].

وقد بسطتُ الكلامَ[٣] على هذا في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾.

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ إمامُ الحنابلة[٤]: «يجبُ على السلطانِ قتالُ كلِّ طائفةٍ مُمتنِعةٍ من التزامِ شريعةٍ من شرائعِ الإسلام الظاهرةِ المتواترةِ: كالصلاةِ أو الزكاةِ أو الصيامِ، أو كانت مُستحلَّةً ما كان مِن المحرَّماتِ الظاهرةِ المجمَعِ عليها: كنكاحِ ذواتِ المحارمِ والفسادِ في الأرض، فيجِبُ جهادُها حتى يكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ باتفاقِ العلماء، كما قاتَلَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ وسائرُ الصحابةِ مانعي الزكاةِ، وكان قد توقَّفَ في قتالهم بعضُ الصحابةِ، ثمَّ اتفقُوا على قِتالهم».

وإذا طَلَبَ السلطانُ أحدًا لإقامةِ الحدِّ عليهِ فاحتَمى بأحدٍ فمَن حماهُ فهو ممَّن لعنَهُ اللهُ ورسولُه، ففي «مسلمٍ»[٥] عن النبيِّ ﷺ: «لَعنَ اللهُ مَن أَحدثَ حدثًا، أو آوى مُحدِثًا».

وقد بسطتُ الكلامَ على هذا وأمثالِه في آخرِ كتابي: «نزهةِ الناظرِين في تاريخِ مَن وليَ مصر مِن الخلفاءِ والسلاطين».

---

(١) عزاه إلى الإمام الأثرم عدَّةٌ، منهم: ابنُ قدامة في «المغني» (٩/ ١٠٣)، وابنُ القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٣٩٣).

(٢) رُوي نحوُه في «تفسير الطبري» (٥/ ٦٠٤).

(٣) هي رسالة «توقيف من كان عارفاً» وهي منشورة في المجلد الأول من هذا المجموع.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٠٨).

(٥) الذي في «صحيح مسلم» (٢/ ٩٩٤) عن حُرمة المدينة: «فمَن أحدث فيها حَدَثًا أو آوى مُحدِثًا، فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين»، وفي «صحيح مسلم» (٣/ ١٥٦٧) أيضًا: «لَعن الله مَن لَعن والدَه، ولَعن الله مَن ذَبح لغير الله، ولَعن الله مَن آوى مُحدِثًا».

وما أَحسنَ ما كتبَه السلطانُ المَلِكُ الظاهرُ بيبرسُ سلطانُ مصرَ إلى شريفِ مكةَ وقد بلغَهُ عنه بعضُ مُهملاتٍ ارتَكبها، وغفَلاتٍ انتَهبها:

«مِن بيبرسَ سُلطانِ مصرَ إلى الشريفِ الحسيبِ النسيبِ أبي نُميٍّ محمدِ بنِ أبي سعدٍ[(١)] أما بعدُ: فإنَّ الحسنةَ في نفسِها حسنةٌ، وهي مِن بيتِ النبوَّةِ أَحسنُ، والسيئةَ في نفسِها سيئةٌ، وهي مِن بيت النبوَّةِ أَسوأُ وأَشْينُ، وقد بلغَنا عنك أيها السيدُ، أنك بدَّلتَ حرمَ اللهِ تعالى بعدَ الأمنِ بالخِيفةِ، وفعلتَ ما يُحمِّرُ الوجهَ وتُسوَدُّ بِهِ الصحيفَةُ، ومِن القَبيحِ كيفَ تفعلُونَ القبيحَ وجدُّكُم الحسَنُ؟! وتقاتِلونَ حيثُ لا تكون فتنةٌ، وتقاتَلونَ حيثُ تكونُ الفِتَنُ، هذا وأنتَ من أهلِ الكرمِ، وسُكانِ الحرمِ، فكيف آويتَ المُجرِمَ، واستحلَلتَ دمَ المُحرِمِ، ومَن يُهنِ اللهُ فما لَه مِن مُكرمٍ، فإما أنْ تقِفَ عندَ حدِّكَ، وإلا أَغمدْنا فيكَ سيفَ جدِّكَ، والسلامُ».

فكَتبَ إليه الشريفُ أبو نُميٍّ: «مِن محمدِ بنِ أبي سعدٍ[(٢)] إلى بيبرسَ سلطانِ مصرَ، أما بعدُ: فإنَّ المَملوكَ مُعترِفٌ بذنبِه، تائبٌ إلى ربِّه، فإنْ تأخذْ فيَدُكَ[(٣)] الأقوى، وإنْ تعفُ فهو أقربُ للتقوى، والسلامُ»[(٤)].

وكذلكَ كتبَ السلطانُ صلاحُ الدِّينِ إلى شريفِ مكةَ، كما بيَّنتُ ذلك في كتابي: «بديعِ الإنشاءِ والصِّفات، في المُكاتبات والمُراسلات»، وذكرتُ فيه صورةَ المُكاتبة.

* * *

---

(١) في النسخ: «بن سعيد»، والمثبتُ الصوابُ الموافقُ للمصادر، وانظر ترجمتَه في «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» (١/ ٤٥٦).

(٢) في النسخ: «بن سعيد»، والمثبتُ الصوابُ الموافقُ للمصادر.

(٣) المُثبتُ مِن النسخة (أ) وهو الموافقُ للمصادر، وفي باقي النسخ: «فأنت».

(٤) الكتابانِ وردا في «العقدِ الثمين في تاريخ البلد الأمين» (١/ ٤٦٥)، و«إتحافِ الورى بأخبار أُمِّ القُرى» (٣/ ١٠٦).

[حسنُ عقيدتِهم وأنهم مِن أهل السُّنة الذابِّينَ عنها]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

حُسنُ العقيدَة، وارتكابُ الطريقةِ الناجيةِ الحميدَة، جارينَ على سَننِ مذهبِ أهلِ السُّنةِ والجماعة[1]، مُقتفِينَ لطريقةِ أهلِ الحقِّ معَ السمعِ والطاعة، ذابِّين عن مذهب أهل السُّنة بالسيف والسِّنان، قامعِينَ أهلَ الضلال مُقتدِينَ بمذهب أبي حنيفةَ النُّعمان.

فلم يُنقَل عن أحدٍ منهم سوءُ اعتقاد، بل يَكرهون أهلَ الزيغ والإلحاد، بخلافِ غيرِهم مِن الخُلفاء والمُلوك، فقد داخلَ كثيرًا منهم الأوهامُ والشُّكوك، وعَرَجُوا عن طريقِ الاستقامة، فباؤُوا بالخُسْر والندامة.

هذا المأمونُ بنُ الرَّشيدِ هارونَ وناهيكَ به كان مُعتزليًّا، وهو أوَّلُ مَن أظهرَ القولَ بخَلْقِ القرآن، وأذلَّ العلماءَ في شأنِ ذلك وأهان، ونَصرَ مذهبَ أهلِ الاعتزال، وفتحَ على الناسِ بابَ الجدال، وكان يجمَعُ العلماءَ بدارِه، ويُحاجِجهم ويُناظِرُهم، فيَقطعهم في المناظرةِ ويَفوقُ عليهم.

وتبِعه على مذهبِه الحائد، واعتقادِه الفاسد، المعتصِمُ باللهِ، ثم الواثقُ باللهِ، وراجَ في زمنهم مذهبُ الاعتزالِ، مذهبُ أهلِ الباطلِ والضلال، إلى أنْ رَفعَ اللهُ عن الأُمة هذه الغمَّةَ بالخليفةِ المتوكِّلِ على اللهِ، فضلًا ونعمةً مِن اللهِ، فأَكرمَ أهلَ السُّنَّة، وعَظُمتْ به عليهم المِنَّة، لكنه كان ـ كما قيل ـ ناصبيًّا، يكرَهُ الحسنَ والحُسينَ وعليًّا، وكان الخليفةُ الناصرُ لدينِ اللهِ شيعيًّا.

---

(١) ونَقَل هذا الكلامَ ـ في معتقد آلِ عثمان ـ شهابُ الدِّينِ أحمدُ بنُ محمدٍ الحمويُّ الحنفيُّ (ت١٠٩٨هـ) في كتابه: «فضائلِ سلاطين بني عثمان» (ص١٢٢)، وكذلك مُدرِّسُ المسجدِ النبويِّ العلامةُ عبدُ القادر شَلَبي في كتابه: «الدُّررِ الحسان في فضائل سلاطينِ آل عثمان» (ص٣٢).

وأما أوائلُ خلفاءِ بني العباسِ: الأمينُ فالرشيدُ، فالهادِي فالمَهديُّ، ومَن قبلَهم، فلم يُنقَل عن أحدٍ منهُم سوءُ عقيدةٍ بحمدِ الله تعالى.

وكذلكَ خلفاءُ بني أميةَ بأجمعِهم، فلم يَثبُتْ عن أحدٍ منهم سوءُ اعتقادٍ، وإنْ كان كثيرٌ منهم قد ارتكبَ المُهملاتِ والفساد، وبُغضُهم للإمامِ عليٍّ وأهلِ بيته ليس هو مِن حيثُ العقيدةُ التي يُدانُ اللهُ تعالى بها، بل مِن حيثُ الخلافةُ والتنافسُ في الرِّئاسة.

وأما خلفاءُ مصرَ الفاطميةُ ـ ويُسمِّيهم أهلُ العِلْم: العُبيديَّةَ؛ نسبةً لجدِّهم عُبيدِ اللهِ المهديِّ؛ لأنهم ليسوا بأشرافٍ حقيقةً بل ادعاءً ـ فكانوا والعياذُ باللهِ تعالى في غايةِ ما يكونُ مِن سوءِ الاعتقادِ والزندقَةِ والإلحادِ، يتجاهرُونَ بسبِّ الصحابةِ، ويَكتبونه على أبوابِ المساجدِ وحيطانِ الشوارع، وكان مُنادِيهم يُنادِي بينَ القَصرَينِ بالقاهرة: «مَن لعنَ وسبَّ فله دينارٌ وإردَبٌّ[1]»[2].

هذا المهديُّ عُبيدُ اللهِ جدُّهم: كان باطنِيًّا خبيثًا حريصًا على إزالةِ مِلَّةِ الإسلام، أَعدَم العلماءَ والفقهاءَ ليتمكَّنَ مِن إغواءِ الخلْق، وكانت مدةُ ولايتِه خمسًا وعشرينَ سنةً[3].

وهذا ابنُه القائمُ بأمرِ اللهِ: كان كما قال أهلُ التاريخِ شرًّا مِن أبيهِ، كان زنديقًا ملعُونًا، أَظهرَ سبَّ الأنبياءِ، وكان مُنادِيه يُنادِي: «الْعنُوا الغارَ وما حَوى»[4]، وكانت مدَّتُه: اثنتي عشرَة سنةً وسبعةَ أشهرٍ.

---

(١) انظر ما تقدَّم عن الإرْدَب.

(٢) نقله ابنُ تيميةَ في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٧).

(٣) وقال أبو شامةَ المقدسيُّ في «الرَّوضتَين» (١/ ٢٠١): «عُبيد هذا: كان زنديقًا خبيثًا، عدوًّا للإسلام، متظاهرًا بالتشيع مُتسترًا به، حريصًا على إزالة المِلَّة الإسلامية».

(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٢٤).

وهذا المنصورُ باللهِ ابنُه: كان سيِّئَ العقيدة، وكانت مُدَّتُه: اثنينِ وثلاثين عامًا، وهؤلاءِ كانوا بالمغرب.

وهذا المعزُّ لدينِ اللهِ: وهو أَوَّلُ مَن استولى منهم على مصرَ وانتَزعها مِن أيدي الخلفاءِ العباسيينَ في سنة: ثمانٍ وخمسينَ وثلاثمئةٍ، وبنى الجامعَ الأزهرَ، [و]أمرَ بقطعِ صلاةِ التراويحِ، وأَمرَ المؤذِّنينَ بمصرَ والشام أن يُؤذِّنوا بـ: (حيَّ على خيرِ العملِ)، وكان سبّابًا خبيثًا، وكانت مملكَتُه مِن الفراتِ وحلبَ والحجازِ إلى أَقصى المغرب، وكانت مُدَّتُه: أربعًا وعشرينَ سنةً.

وهذا ابنهُ العزيزُ باللهِ: كان كذلكَ، وكان يدَّعِي علمَ المُغيَّباتِ(١).

ومِن العَجبِ: أنه اتَّخذَ له وزيرًا نصرانيًّا وولاهُ مصرَ، وآخرَ يهودِيًّا وولاهُ الشامَ(٢)، فعزَّ النصارى واليهودُ في أيامِهما، وبنَوا البِيعَ والكنائسَ، وخُطبَ له بالمَوصِلِ واليمنِ زيادةً على مُلك أبيه، وكانت مدتُه: إحدى وعشرينَ سنةً وخمسةَ أشهرٍ.

وهذا الحاكمُ بأمرِ اللهِ ولدُه: كان خبِيثًا ملعونًا زندِيقًا، كثيرَ التلوُّنِ والتجاهُرِ بسبِّ الصحابة، قبائحُه كثيرةٌ، وعقائدُه شهيرةٌ(٣).

---

(١) جاء في «وفيات الأعيان» (٥/ ٣٧٣): أنَّ العزيزَ صَعَد يومًا المنبرَ فرأى ورقةً فيها مكتوبٌ:

بالظُّلم والجَورِ قد رَضينا ... وليس بالكفر والحماقهْ
إنْ كنتَ أُعطيتَ عِلْمَ غيبٍ ... فقلْ لنا: كاتبَ البطاقهْ؟!

(٢) قال السيوطيُّ في «حسن المحاضرة» (١/ ٦٠١): «ومِن غرائبه أنه استَوزر رجلاً نصرانيًّا يُقال له: عيسى بنُ نسطورس، وآخرَ يهوديًّا اسمه: ميشا».

(٣) ومِن رُعونات الحاكم بأمر الله: أنه مَنع أهلَ مصرَ مِن طبخِ المُلوخية! انظر: «حسن المحاضرة» (١/ ٦٠٢).

قال كثيرٌ من أهلِ التاريخِ[١]: «لم يلِ مصرَ بعدَ فرعونَ شرٌّ مِن الحاكم»، وكانَت مدَّتُه: خمسًا وعشرينَ سنةً وشهرًا.

وهـذا الظاهـرُ لإعزازِ ديـنِ اللهِ ولدُه: كان رافضيًّـا جبّارًا، سـيِّئَ العقيدَة، وكانت مُدَّته: سـتَّ عشـرةَ سنةً.

وهذا المستنصِرُ باللهِ ولدُه: كان كذلكَ، وخُطبَ له في كلِّ جوامعِ بغداد، وملأ الرفضُ في أيامِه جميعَ البلاد، وزِيدَ في الأذانِ ببغداد: (حيَّ على خيرِ العمل)، وكانت مدَّتُه: ستِّين سنةً وأربعةَ أشهرٍ، ولا يُعلم خليفةٌ ولا سلطانٌ أقام قدرَ مدَّتِه في الإسلام[٢].

وهذا المُستعلِي باللهِ ولدُه: كان كذلكَ، وهو الذي أَرسَلَ إلى الفِرَنجِ يدعُوهُم إلى أخذِ بلادِ الشامِ والقُدسِ الشريف، وكان مِن أمرِهم ما تقدَّمَ ذِكرُه، وكانت مُدَّته: سبعَ سنين.

وهـذا الآمرُ بأحـكامِ اللهِ ولدُه: كان كما قـال الذهبيُّ[٣]: «رافضيًّا خبيثًا فاسِـقًا، ظالمًـا جبَّـارًا، مُتظاهِـرًا بالمُنكـرِ واللَّهـوِ، ذا كِبـرٍ وجَبـروت»، وكانت مُدَّته: تسـعًا وعشـرينَ سنةً وسـبعةَ أشهرٍ.

وهذا الحافظُ لدينِ اللهِ ابنُ عمِّ الآمرِ: كان كذلكَ.

ومِن العجَبِ: أنه وَلّى الوِزارةَ لبهرامَ النصرانيِّ الأرمنيِّ، فأَنكرُوا عليه ذلكَ، وقال له بعضُ خَواصِّه: النصرانيُّ لا يكونُ وزِيرًا؛ لأنَّ مِن وظيفة الوزير أنْ يَصعدَ معَ

---

(١) وقاله السيوطيُّ في «حسن المحاضرة» (١/ ٦٠١).

(٢) كذلك قال السيوطيُّ في «حسن المحاضرة» (١/ ٦٠٤).

(٣) «تاريخ الإسلام» (١١/ ٤٢٢).

الخليفةِ المنبرَ يومَ الجمعةِ، فأَصرَّ على تَوليتِه، وأنْ ينوبَ عنه القاضي في ذلك[١]، وكانت مُدَّتُه: تسعَ عشرةَ سنةً وسبعةَ أشهرٍ.

وكذلك كان الظافرُ بأعداءِ اللهِ، والفائزُ بنصرِ اللهِ، والعاضِدُ لدينِ اللهِ، وهو آخر بني عُبيدِ اللهِ الفاطميين، وكان مدَّةُ وِلايتِهم بمصرَ: مئتي سنةٍ وستَّ سنينَ، ومجموعُ مدَّتِهم بمصرَ والمغربِ نحوَ: مئتَينِ وإحدى وسبعينَ سنةً.

قال العلامةُ الرُّعَيني: «أجمعَ العلماءُ بالقَيروانِ[٢] على أنَّ حالَ بني عُبيدٍ حالُ المرتدِّينَ والزنادِقةِ؛ لِما أَظهَرُوا مِن خلافِ الشريعة»[٣].

وقال العلامةُ أبو حسنٍ القابِسيُّ: «إنَّ الذينَ قتلَهم عُبيدُ اللهِ وبنوهُ مِن العلماءِ والعبَّادِ أربعةُ آلافِ رجلٍ لِيَردُّوهم عن الترضِّي عن الصحابةِ، فاختاروا الموتَ، ويا حبَّذا لو كان رافضيًّا فقط، ولكنه زنديقٌ والعياذُ بالله»[٤].

فانظُر أيها العاقِلُ: إلى هؤلاءِ وإلى سلاطينِ بني عثمانَ المُتمسِّكِينَ بالسُّنةِ والقرآن، المتقلِّدِين بمذهبِ الإمام أبي حنيفةَ النعمان، يلوحُ لكَ الحقُّ والفُرقان.

وانظر أيضًا: إلى عقائدِ ملوكِ العَجمِ الآنَ شاه عباس وأجدادِه، وإلى إسماعيلَ شاه الذي كان في أيامِ السلطانِ الغُوريِّ[٥]، استولى على سائرِ ملوكِ العَجم، وقَتَلَ عساكرَهم بحيثُ قتلَ ما يزيدُ على ألفِ ألفٍ، وقَتَلَ العلماءَ وأَحرقَ كُتبَهم

---

(١) ساق ذلك الحافظ ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ في «رفع الإصر عن قضاة مصر» (ص١٣٤).

(٢) القَيروان: مِن مُدن الجمهورية التونسية.

(٣) أورده الذهبيُّ في «تاريخ الإسلام» (٩/ ٣٣٧).

(٤) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي: (٧/ ٤٦١).

(٥) انظر كتابَ: «تاريخِ الصفويين وحضارتِهم» لبديع محمد جمعة وأحمد الخولي.

ومصاحفَهم، ونَبشَ قبورَ المشايخِ مِن أهلِ السُّنة، وأخرجَ عِظامَهم وأحرقَها، وأظهرَ مذهبَ الرَّفضِ والإلحادِ بأرضِ العجمِ إلى يومنا هذا.

فانظُر: إلى ما اشتَملَ عليه ملوكُهم الآنَ مِن سبِّ الشيخَينِ رضي الله عنهما، وتَعطيلِ الجُمعِ والجماعات، واستحلالِ المحرَّمات، والمُجاهرَةِ بالفجورِ في المساجد، وتَعطيلِها مِن الراكعِ والساجد، ولو رأيتَ أهلَ بلادِه مِن أهلِ السنَّةِ والجماعة، وما هم فيه مِن الذُّلِّ والهوان، لتتابعَتْ منكَ عليهم الزَّفراتُ والأحزان، ويا ليتَهم عندَهم بمنزلَةِ أهلِ الذمَّةِ عندَنا، بل بالغوا في احتقارِهم وازدرائِهم وإيذائِهم.

وانظُر الآنَ: إلى حالِ مُلوكِ الهند، وإلى عقيدةِ ابنِ السلطانِ جلالِ الدينِ الأكبر(١)، فقد قيل: إنه الآنَ لا يَتديَّنُ بدين، وقد ارتَكبَ في اعتقادِه طريقةَ المُتلاعِبين، مِن الزِّنديقينَ والمُلحِدين.

اللهمَّ: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلوبَنا على دينِك، ويا مالكَ المُلوكِ، ومُزيلَ غَياهِبِ الشُّكوك، انصُر مذهَبَ أهلِ الحقِّ، وأعلِ كلمةَ الإيمانِ ببقاءِ أيامِ دولةِ سلاطينِ بني عثمان، واخلَع عليهم خِلَعَ القَبولِ والرِّضوان، وأيِّد كَلمتَهم بالحُجَّةِ والبُرهانِ، والسَّيفِ واللِّسانِ والسِّنان، واجعَل الدنيا كلَّها مِلْكَهم، وأيِّد سُلطانَهم ومُلْكَهم، فإنهم الآنَ خيرُ ملوكِ الزمان، سلاطينُ أهلِ السُّنة والجماعة أُولي العَظمة والشان.

***

---

(١) الأب هو المَلِك جلال الدين محمد أكبر (ت١٠١٤)، انظر: «نزهةَ الخواطر» (٥/ ٤٩٦)، وولدُه هو جِهانْكير (ت١٠٣٦)، انظر: «نزهة الخواطر» (٥/ ٥١٦).

[انقيادُهم للشَّرع وأمرُهم باتباعه]

ومن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

انقيادُهـم للشـرعِ الشـريفِ، معَ علـوِّ مِقدارِهم المُنيـف، والأمـرُ باتباعه، وأنْ يكونـوا كلُّهـم مِـن أتباعـه، فهـم دائمًـا للشـرعِ مُعظِّمـون، وباتِّباعِـه آمـرون، وعن اجتنابِـه ناهون[1].

وكلمةُ الشرعِ فيما بينَهم جاريةٌ على الوزيرِ والأمير، كالمسكينِ والفقير، حتى لو أَمرَ سلطانُهم أو وزيرُهم أو أميرُهم بأمرٍ لا بدَّ مِن تأييده بحُكمِ حاكمِهم الشرعِ الشريفِ، وأنْ يمضيَ عليه قاضِيهم لمزيدِ الامتثالِ والتشريف، وكفى بهذه لهم منقبةً فاخرة، ومزيَّةً ظاهرة، حيثُ أقاموا الشرعَ وأعزُّوا أنصارَه، وشيَّدُوا بُنيانَه وعمَّروا أمصارَه.

ولقد وقعَ في زماننا: أنَّ بعضَ الباشاواتِ بمصرَ الأماثلِ المُعتبَرِين، وكانَ ذا صَولَةٍ ومهابةٍ وتمكين، أَخذَ مِن بعضِ التجّارِ بمصرَ أموالًا جزيلة، مُحتجًّا عليهم بحُجَجٍ واهية، فلما توجَّهَ الباشا المذكورُ إلى ديارِ الرُّومِ اتَّبعوهُ واشتكَوه لمولانا السلطانِ عثمان، فخَرجَ توقيعُه الشريفُ بأنَّ الدعوى تُسمَعُ عليه في مجلسِ الشرعِ، ويُؤخَذُ منه ما أَخذَه بغيرِ حقٍّ ويُدفَعُ الحقُّ لأصحابِه، فأُحضِرَ لمجلس الشرعِ، وسُمعَت الدَّعوى عليه، وأُخذَ الحقُّ منه، وكانَ قريبًا مِن عشرينَ ألفَ دينارٍ، فهل هذا إلا محضُ عدلٍ وإنصافٍ، وصرفُ رفقٍ وإسعافٍ، حيث سوَّوا في الحقِّ بينَ وزيرٍ مِن ذَوي الشهامَةِ والباس، وبينَ مَن هو مِن آحاد الرَّعيةِ والناس.

---

(١) قال ابنُ حجرٍ الهيتميُّ وهو يتكلَّم عن السلطان سليمانَ القانونيِّ: «انفرد هو وجميعُ آبائِه الأكرمِين، مِن بين سائرِ المُلوك والسلاطين، ألا يُبرموا أمرًا إلا بعدَ مُشاورَةِ العلماء العاملِين»، انظر: «المناهلَ العذبة» (ص٢٤).

وبالجملَةِ فهم للشرعِ مُعظِّمون، وباتِّباعهِ آمرون، وإنْ حَصلَ زيغٌ أو ظلمٌ فالظنُّ أنهم لا يعلَمُون.

ـ حُكي: أنَّ المأمونَ ركبَ يومًا ومعه أحمدُ بنُ هشامٍ(١)، فصاحَ رجلٌ: اللهَ اللهَ يا أميرَ المؤمنين، فوقفَ له المأمون، فقال: إني رجلٌ جئتُكَ مِن فارسَ، وقد ظَلمني أحمدُ بن هشامٍ، فقال له المأمونُ: كنْ بالبابِ حتى أرجِعَ وأنظر في أمرِك! فلما مَضى التفَتَ إلى أحمدَ بنِ هشامٍ وقال له: ما أقبحَ بك أنْ تقعدَ أنتَ وصاحبُكَ على رؤوسِ الأشهادِ؟! وفي دَسْتِ(٢) المظالم، وأنتَ مظلومٌ وهو ظالمٌ؟! فكيفَ وأنتَ ظالمٌ وهوَ مظلومٌ؟! وهو محِقٌّ وأنتَ مُبطِلٌ؟! فوجِّهْ إليه واسترضِه، فلو ظلمتَ ابني العباسَ كان أهونَ عليَّ مِن أنْ تظلِمَ رجُلًا تَعنّى مِن شاحطِ(٣) البلادِ، وقطعَ المَهامِهَ(٤) والبرارِي، وليسَ له مُعينٌ سواي، ولا يتيسَّرُ له النظرُ إليَّ كلَّ وقتٍ.

قال: فوجَّهَ إليه أحمدُ بنُ هشامٍ على الفَورِ واسترضاه، وكتبَ إلى عاملِه بفارسَ بردِّ جميعِ ما أَخذَه منه(٥).

***

---

(١) أحمد بن هشام بن فرخسرو المروزي، مِن القادة زمنَ المأمون، ترجمتُه عزيزةٌ انظرْها في: «بغية الطلب في تاريخ حلب» (٣/ ١٢١٥).

(٢) الدَّسْت: الدِّيوان، انظر: «تاج العروس» (٤/ ٥١٨).

(٣) شاحِط البلاد: بعيدها، انظر: «تاج العروس» (١٩/ ٤٠٤).

(٤) المَهامِه: هي المَفازةُ البعيدة والقِفار، انظر: «القاموس المحيط» (ص١٢٥٣).

(٥) أَورد القصةَ ابنُ طيفورٍ (ت٢٨٠) في كتاب «بغداد» (ص٥٩)، قال: «حدَّثني بعضُ أصحابِنا: قال: شهدت المأمون...» ثم ذَكرها، وأَوردها صاحبُ «المحاسن والمساوئ» (ص٢١٢).

[طهارتُهم مِن المنكرات والقبائح]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

أنهم بأسرِهم في غايةِ ما يكونُ مِن طهارةِ الفمِ والذيل، وعدمِ الحَيفِ والميل، وعدَمِ تَعاطي المُنكراتِ، وقبائحِ المحرَّمات، مِن شُربِ الخمورِ، وتعاطي الفُجورِ، كما يفعلُه غيرُهم مِن الملوكِ والسلاطين، ويرتكبُه مَن هو في صِفةِ البهائمِ وإخوانِ الشياطين.

فلم يُنقَل عن أحدٍ منهم أنه فَعَلَ شيئًا مِن ذلكَ، ولم يُعلَم لأحدٍ منهم صَبوة، ولا ارتكابُ رَذيلة، أو ما يُخِلُّ بالمروءةِ والفضيلة.

بل هم دائمًا في غايةِ الصيانة، ونهايةِ الدِّيانة، وتحصيلِ الفضائل، واجتنابِ الرذائل، مع الخوفِ والمراقبةِ والحُضورِ، والإقبالِ على اللهِ تعالى والاعتمادِ عليه في جميعِ الأُمور.

بل بيوتُهم وقصورُهم وسراياهُم مشحونَةٌ بتلاوةِ القرآن، وإظهارِ شعارِ الإسلام والإيمان، ومُطالعَةِ كُتبِ العلمِ مِن الفقهِ والنحوِ والصرفِ والتفسير وغيرِ ذلكَ، مع المحافظةِ على الصلواتِ في أوقاتها، حتى إنَّ مماليكَهم وأتباعَهم الذين داخلَ سراياهُم كلَّهم كذلك[1].

وهم في غايةٍ مِن الأدبِ واللطافة، ونهايةٍ مِن الكمالِ والنظافة، صغيرُهم لوحُه بينَ يدَيه، وكبيرُهم مُصحَفُه يقرأُ فيه ويَنظرُ إليه، أو يَشتغِلُ بالعلمِ ومُطارحَةِ المسائل، ولا يكادُ يوجَدُ فيها إلا فاضلٌ أو كامل.

---

(١) ومِن المناصِب الرَّفيعةِ زمنَ الدولةِ العثمانيةِ منصِبُ: (مُعلِّم السُّلطان)، وعادةً ما يكون قريبًا مِن السلطان وأُسرتِه، ويأمرهم وينهاهم، انظر: «الدولةَ العثمانية تاريخ وحضارة» (١/ ٣٠٤).

لا يَتعاطَون المُهمَلات، ولا يَقرَبون الرَّذالات، حتى إنهم كما قيل: لا يَشرَبون فيها الدُّخانَ، فضلًا عن قُربانِ غيره مِن زُورٍ أو بُهتان، بخلافِ غيرِهم مِن السلاطينِ وأتباعِ غيرِهم مِن الملوكِ، فكم يرتكبون مِن فسقٍ وفُجور! وكم يَتعاطَونَ مِن فِعلٍ مُحرَّمٍ وخُمور! ولا يَمنعُهم مِن ذلكَ شهامَةُ المُلْكِ والسَّلْطنة، ولا يُبدِّلونَ السيئةَ بالحسنَة، ولولا الخوفُ مِن غِيبَةِ مُلوكِ أهلِ السُّنةِ والإسلام، وذِكرِ مساوِئِهم بينَ الأنام، لذكَرتُ هنا كثيرًا منهم، معَ ذِكرِ ما كان يفعلُه ويتعاطَاه ولا يُهمِلُه، غيرَ أنَّ السَّترَ مطلوب، والواجبَ الإغضاءُ عن العُيوب، إلا إنْ كان ذلكَ بدعةً فإنها تُذكرُ مِن أجل التحذيرِ منها، والتنفيرِ عنها، ولا غيبةَ في ذلك، ولا إثمَ في ذِكر ذلك(١).

* * *

(١) عبارة: «ولا غيبةَ في ذلك، ولا إثمَ في ذِكر ذلك» زيادةٌ مِن (ش).

[الاهتمامُ بخدمة الحرمَين الشريفَين]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

مزيدُ الاهتمامِ وكثرةُ القيامِ بخدمَةِ الحرَمينِ الشريفَين، والبلدَينِ المُنيفَين، والاعتناءِ بمصالحِهما وما يَتعلَّق بهما، ويَتعبَّدُون بذكرِهما، ويُبجِّلُون أهلَهما[١]...

ويا لها مِن خدمةٍ قد شُرِّفوا بها على ملوكِ الزمان، وافتَخروا بها على سلاطينِ العصرِ والأوان[٢].

فإنَّ أَشرفَ الملوكِ والسلاطين، وأجلَّ عظماءِ الخَواقين، مَن كان خادمَ الحرمَين الشَّريفَين، وسَلكَ سُلوكَ القِبلتَين، وبذلكَ كان يفتَخِرُ سلاطينُ مصرَ الجراكِسةُ ومَن قبلَهم مِن سلاطينِ مصرَ على سائرِ المُلوكِ، وكانت هذه الخدمَةُ قد حلَّتْهم حِلْيَةَ الدَّراري المُرصَّعةِ في الذهبِ المسبوكِ، فشرَفًا لآلِ عثمانَ لهذِه الخدمَة، وبُشرى لهم بهذه النِّعمَة، معَ اهتمامِهم أيضًا بخدمة القدسِ الشريف، والخليلِ المعظَّمِ المُنيف[٣].

هذا السلطانُ سليمانُ تغمَّدهُ اللهُ بالرحمةِ والرِّضوان، وأَسكنَ أُصولَه وفروعَه أعلى فراديسِ الجِنان، وجَعلَ السَّلْطنةَ الإسلاميَّةَ في ذُرِّيَّتِه إلى ظهورِ مهديِّ الزمان،

---

(١) ويُنظر في ذلك كتابُ: «خدماتِ العثمانيينَ في الحرمَين الشريفَين» لمحمد الأمين المكي (ت١٣١٨هـ)، ورسالةُ «أوقافِ نساءِ السلاطين» للدكتورة ماجدة مخلوف.

(٢) ومِن عجيب اعتناء سلاطينِ الدولة العثمانية بالحرمَين الشريفَين: أنهم كانوا يُرسلون الهدايا والعطايا لأهل الحرمَين، ويُقدِّمون أيضًا الصُّرَّةَ العثمانية لشؤون الحُجاج والمُعتمرين قبلَ أنْ يَحكموا بلادَ الحرمَين، وانظر ما سيأتي.

(٣) وحريٌّ بالقارئ هنا أنْ يطَّلعَ على كتاب: «الأوقاف الإسلامية في القدس الشريف»، فسَيرى كمًّا هائلًا مِن الأوقاف العثمانية على مراكز العِلم والعبادة في القدس الشريف وما جاورها.

ونزولِ عيسى عليه السلام، قد جَدَّدَ سطحَ الكعبةِ المشرَّفة، لتكسِيرِ خَشبٍ كان في سقفِها خِيفَ منه سقوطُ السَّقْف، بعدَ استفتائِه أبا السُّعودِ صاحبَ «التفسيرِ»[١] في ذلكَ، فأَفتاه بالجواز، ووافقَه على ذلكَ أعيانُ علماءِ مكةَ يومَئذٍ كابنِ حَجَرٍ وغيرِه[٢]، بعدَ أنْ كادتْ تحصُلُ فِتنةٌ بمكةَ مِن الغَوغاء والعامَّة، كما هو دأبُ أهلِ الجهالةِ في تعصُّبِهم على الضلالة، وجَدَّدَ المطافَ وأَصلحَ أبوابَ المسجدِ بالفضة، وفَرَشَ المسجدَ جميعَه بالحَصى، وصفَّحَ بابَ الكعبةِ بالفضةِ بمساميرِ الفضَّة، وأَصلحَ الميزابَ، وصفَّحَ بالفضةِ المُموَّهةِ بالذهب.

وكان الرشيدُ في أيامِهِ أَرسلَ ثمانيةَ عشرَ ألفَ دينارٍ تُضرَبُ صفائحَ على بابِ الكعبة.

وكان الوليدُ بنُ عبدِ المَلِك أيضًا أَرسل في أيامه ستةً وثلاثينَ ألفَ دينارٍ تُضرَبُ صفائحَ على باب الكعبةِ وميزابِها.

وبَنى السلطانُ سليمانُ أيضًا أربعَ مدارِسَ بالحرمِ الشريفِ على فقهاءِ أئمةِ المذاهبِ الأربعة، غيرَ أنها لم تَكمُلْ إلا في أيامِ ولدِه السلطانِ سَليمٍ، وقرَّرَ في كلِّ مدرسةٍ مُدرِّسًا مِن الأئمةِ الأربعة[٣]، إلا أنه لم يوجَدْ حينئذٍ للمدرسَةِ الحنبليَّةِ مُدرِّسٌ

---

(١) هو شيخ الإسلام أبو السُّعود العمادي (ت٩٨٢).

(٢) أرَّخ الإمامُ ابنُ حَجَرٍ الهيتميُّ هذه الواقعةَ وبيَّن حُكمَها، وذَكر تفاصيلَها والفتاوى فيها، في رسالته المُمتِعة: «المناهلِ العَذْبة في إصلاح ما وَهى مِن الكعبة».

(٣) أَمر السلطانُ سليمانُ أنْ تُبنى مدارسُ للمذاهب الأربعة بمكةَ المكرمةِ في أحسن الأماكن اللائقة، فبُنيتْ مِن جهةِ باب الزِّيادة مقابلَ الميزاب، وعيَّن أوقافًا للمُدرِّسينَ والطلبةِ والفرّاشينَ بما تَقرُّ به أعينُ المسلمين، وقد وَصفها وذَكر شيئًا مما قُرِئ فيها قطبُ الدِّينِ النَّهروالِيُّ في «الإعلام» (ص٣٥٠) فانظرْه مُتكرِّمًا تجدْ فيه نبذًا عن عزَّةَ العِلم وأهلِه، وانظر ما سيأتي عن الدفتردار إبراهيم باشا.

حنبليٌّ، فعُدِلَ عنه إلى علمِ الحديث، وجُعِلَتْ مدرسةُ الحنابلةِ دارَ الحديث[١].

وكانَ السلطانُ سُليمانُ قد أرادَ الشروعَ في تجديدِ بناءِ المسجِدِ الحرام؛ لأنَّ كثيرًا مِن جوانبِهِ وسقوفِه كان قد آلَ إلى السُّقوط، وتكسَّرتْ أخشابُ السُّقوف، فاتَّفقَ الرأيُ أنْ يَجعلَ عِوضَ سُقوفِ الخشبِ قِبابًا دائرةً بأَروقةِ المسجدِ الحرامِ كما هي عليه الآنَ؛ لأنها أكثرُ إقامةً وأشدُّ متانة، فأدركَتْه المنيَّةُ قبلَ ذلكَ رحمه الله.

فشَرعَ فيه على الوجهِ المذكورِ ولدُه السلطانُ سَليم، وبَنى البُنيانَ المُحكَم، وأجادَ بناءَه وأَحكَم، فلما عمَّرَ الجانبَ الشرقيَّ والجانبَ الشماليَّ، وانتهَت العِمارةُ إلى بابِ العُمرةِ مات السلطانُ سَليمٌ رحمَه الله.

فشَرعَ فيه ولدُه السلطانُ مرادٌ[٢]، فأَكملَ عِمارةَ الجانبِ الغربيِّ والجنوبيِّ، وكمُلتْ بذلكَ عِمارةُ جميعِ المسجِدِ الحرام، بجميعِ شُرفاتِه وأبوابِه ودرجاتِه على وجهٍ حَسنٍ، ومنوالٍ مُستَحسنٍ، بحيث صارَ ما عمَّرَه العباسيونَ وغيرُهم لا يُعدُّ شيئًا بالنسبةِ لهذه العِمارة.

وكُتبَ على الأبوابِ وصُدورِ الأَروقةِ مِن الآياتِ الشريفةِ في كلِّ محلٍّ ما يُناسِبه.

وكانتْ نفقَةُ عِمارةِ المسجِدِ هذهِ مئةَ ألفِ دينارٍ وعشرةَ آلافٍ، غيرَ ثمنِ الأخشابِ المجلوبةِ مِن مصر، وغيرَ ثمنِ الحديدِ الذي هوَ آلةُ العِمارةِ

---

(١) وصار يُقرأ بهذه المدرسةِ الكتبُ السِّتة، نصَّ على ذلك في «الإعلام» (ص٣٥٤).

(٢) عُرف السلطانُ مراد الثالث بكثرة جُودِه وإحسانِه، وقد أوقف أوقافًا كثيرةً على فقراء المدينة المنوَّرة، وأَجرى كثيرًا مِن الهباتِ على أهل العِلم وطلبتِه، فكثُروا في زمنه.

واشتهر السلطانُ مراد الثالث بحبِّه لجمعِ الكتب ومطالعتِها، وكان شاعرًا يَنظم باللغة العربية والتركية والفارسية، وله دواوين، انظر: «المنح الرحمانية» (ص٢٠٩).

كالمَساحِي والمَجارِفِ والمسامير، والحديدِ المُحدَّدِ رأسُه بطُولِ الرِّواقَين، وبينَ الأُسطوانتَينِ تحتَ كلِّ عقدٍ؛ لئلا يقِفَ عليه الطيرُ فيلوِّثَ بزَرَقِه المسجدَ، وغيرَ هِلالاتِ القِبابِ التي عُملَتْ بمصرَ مِن النُّحاسِ، وطُليَتْ بالذهب، عَملها مسيح باشا[1] وأرسلَها إلى مكةَ[2].

وبَنى السلطانُ سَليمٌ أيضًا مسجدًا وسبيلًا، وحوضَ ماءٍ للدوابِّ على يمينِ الصاعدِ إلى الأبطح، ومسجدًا آخرَ وسبيلًا، ومُتوضَّئًا في انتهاءِ سوقِ المَعْلاة.

وهذا السلطانُ أحمدُ رحمه الله تعالى كان مُحبًّا لعِمارةِ الحرمَينِ الشريفَين[3]،

---

(١) الوزير خادم مسيح محمد باشا (ت١٠٠٠هـ تقريبًا): تولى على مصرَ أولَ ولايةِ السلطان مرادٍ الثالث، وكان شديدًا على اللُّصوص والفاسدين، ولم يكن يَقبل شيئًا مِن الهدايا لا جليلًا ولا حقيرًا، فازدهرتْ مصرُ في وِلايته وأَمِنتْ.

عُرف هذا الوزيرُ بصحبة الإمام نورِ الدِّينِ عليِّ بنِ أحمدَ القَرافيِّ الشافعي، فبَنى مسجدًا ورِباطًا وكُتّابًا ورِواقًا وسبيلًا، وجعل أوقافَ ذلك كلِّه بيد الإمام القَرافيِّ، ومِن بعدِه لذرِّيته، ولا يزال المسجدُ والسبيلُ قائمًا إلى زماننا بشارع صلاح سالم، عندَ ميدان السيدة عائشة.

وبَنى أيضًا مسجدًا وتربةً وسُبلًا ودكاكينَ بمنطقة الفاتح بإصطنبول ودُفن بمقبرته، ومسجدُه هذا على يمين المُنحدِر مِن شارع فوزي باشا إلى صَبب الأمنيات، جنوبَ مسجدِ الخِرْقة الشريفة، انظر: «الموسوعةَ الإسلامية التركية» (٢٩/ ٣١٠)، و«آثارَ القاهرة الإسلامية في العصر العثماني» (٣/ ٩٥)، و«المنحَ الرحمانية» (ص٢٣٣).

تنبيه: هناك شخصيةٌ أُخرى في الدولة العثمانية باسم: (مسيح باشا ت٩٠٧)، تولى منصبَ الصدر الأعظم، وهو مِن الأُسر التي أسلمتْ بعدَ فتحِ القسطنطينية، ولكنه متقدِّمٌ عن الذي ورد ذكرُه في الكتاب، انظر: «الموسوعةَ الإسلامية التركية» (٢٩/ ٣٠٩).

(٢) وقد أهدى السلطان مراد الثالث إلى المسجد النبويِّ منبرًا مِن الرُّخام الأبيضِ النقيِّ، وهو موجودٌ إلى الآنَ بجماله ورَونقِه، يعلوه الخطيبُ يومَ الجمعة.

(٣) عُرف السلطانُ أحمد الأول بحبِّه للعمران عامةً، وللحرمَين الشريفَين خاصَّةً، وقد أهدى إلى =

وأنشأ أوقافًا مِن قُرى مصرَ على خُدَّامِ الحرمِ الشريفِ[1]، وجَعلَ مناطقَ مِن الفضَّةِ المُحلّاةِ بالذهبِ للكعبةِ المشرَّفةِ صَونًا لها عن الهدمِ، وأَرسَلَ شبابيكَ فضةٍ مُحلّاةً بالذهبِ للحُجرةِ الشريفةِ، وفَصًّا مِن الألماس كما قيل يُساوي: ثمانينَ ألفَ دينارٍ ليُجعلَ فوقَ الكوكبِ الدُّرِّي[2].

وكان قد عَزَمَ على عِمارةِ الحَرمِ النبويِّ على حُكمِ عِمارةِ الحَرمِ المكيِّ المتقدِّمة، وأَرسلَ البنّائينَ والمهندِسينَ مِن مصر لذلك، فبَنوا بعضَ شيءٍ به نفعٌ كبيرٌ مِن الحَرِّ والمَطرِ، لكنه ماتَ قبلَ إتمامِه[3].

= المواجهة الشريفة عندَ القبرِ النبويِّ لوحًا مِن فضّة، مقابلَ الواقفِ للسلام على النبيِّ ﷺ، ولا يزال موجودًا إلى الآن، ومما كُتب عليه: «اللهم اغفرْ لعبدِك المُنقاد لأحكام شريعةِ نبيِّك العظيمِ السلطان أحمد»، وهو مؤرَّخ بحساب الجُمَّل عام: (١٠٢٧هـ).

(١) هذا الوقفُ يُعرف بوقف: (الأحمدية)، يُرسل مِن مصرَ سنويًّا إلى أهل الحرمَين نحوٌ مِن عشرينَ ألفَ دينار، انظر: «منائح الكرم» (٣/ ٥٢٧) مع الهوامش.
ويُنظر لزامًا في هذا الموضوع رسالةٌ جامعية بعنوان: «مخصَّصاتِ الحرمَين الشريفَين في مصرَ إبانَ الحُكم العثماني» للأستاذ محمد علي بيومي.

(٢) الكوكب الدُّرِّي: هو عبارةٌ عن قطعتَين كبيرتَين مِن الألماس، مكفوفتَين بالذهب، انظر حولَه: «الجواهرَ الثمينة في محاسن المدينة» (ص٦٦)، و«نزهةَ الناظرين في تاريخ مسجد سيد الأوَّلين والآخرين» (ص١٧٥).

(٣) وآخرُ اعتناءٍ واهتمامٍ مِن سلاطين آل عثمانَ بالحرمَينِ الشريفَينِ كان في زمن السلطان محمد وحيدِ الدِّين (ت١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م)، فقد أَصدر أوائلَ عامِ: (١٣٣٤هـ - ١٩١٦م) أمرًا بعمل ترميماتٍ وإعمارٍ شاملٍ للمسجد الحرام، رَغمَ الشدَّةِ والاضطرابِ الذي كان بالدولة العثمانية بسبب الحربِ العالمية الأُولى، إلا أنَّ الخروجَ على العثمانيينَ حالَ دونَ إتمامِ ذلك، وانظر: «عمارةَ المسجدِ الحرام والمسجدِ النبويِّ في العهد السعودي» للدكتور عبد اللطيف دهيش (ص٨٢).

[بناء الكعبة المُشرَّفة]

واعلَم أيَّدكَ اللهُ تعالى: أنَّ السلاطينَ الآن لو هَدموا الكعبةَ المشرَّفةَ، وبنوها بناءً حسنًا بالحجارة الحسنة الجديدة، والرُّخامِ المُلوَّنِ لكانَ صوابًا وأحسن، فقد آلتْ إلى السُّقوط، ومالتْ إلى الهُبوط؛ لِتقادُمِ الأَعصار وطولِ الزمان، فالله تعالى يُوقِظ لهذه المنقبةِ الفاخرةِ مولانا السلطان عثمان.

فقد قال الفقهاءُ الأئمَّة الأعلام، الذين عليهم مدارُ التعويلِ في الأحكام: «ولا بأسَ بتغييرِ حجارَةِ الكعبةِ المشرَّفة إن احتاجَتْ إلى المرمَّةِ، إلا الحَجرَ الأسودَ، فيَحرمُ تغييرُه لعدَمِ قيامِ غيرِه مقامَه، ولا يَنتقِلُ النُّسكُ معَه لو أُخذ مِن الكعبة»[1]، كما وقع في أيام القرامطة كما تقدَّم ذِكرُه.

لكنْ قال العلامةُ ابنُ عقيلٍ في كتابِ «الفنون»: «لا يجوزُ أن تُعلّى أبنِيتُها زيادةً على ما وُجِدَ مِن عُلوِّها»[2].

وفي كتاب «الفروعِ»[3] للعلامة ابن مُفلِحٍ: «يَتوجَّهُ جوازُ البناءِ على قواعدِ إبراهيمَ عليه السلامُ».

يعني لذلِكَ: ما رواه الشيخانِ[4] البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يا عائشةُ، لولا أنَّ قومَكِ حديثُو عهدٍ بشرْكٍ لهدَمتُ الكعبةَ فألزقْتُها بالأرضِ، ولجعَلتُ لها بابًا شرقيًّا، وبابًا غربيًّا، وزِدتُ فيها ستَّةَ أذرعٍ

---

(١) انظر: «شرح منتهى الإرادات» (٢/ ٤٢٧).

(٢) نقله في «الفروع» (٧/ ٣٨٦).

(٣) «الفروع» (٧/ ٣٨٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٢/ ١٤٧)، «صحيح مسلم» (٢/ ٩٧١).

مِن الحِجرِ، فإنَّ قُريشًا استَقصرتْها حينَ بنت الكعبةَ، فهلُمِّي لأُريَكِ ما تركوا منها»، فأَراها قريبًا مِن ستَّةِ أذرعٍ.

وفي حديثِ الإمام أحمدَ[١] وغيرِه: «إنَّ قومَكِ قصُرَتْ بهم النَّفقةُ فقصَّروا في البُنيانِ، وإنَّ الحِجرَ مِن البيت».

ولما سمِعَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ رضي الله عنه هذا الحديثَ مِن خالتِه عائشةَ رضي الله عنها هَدَم الكعبةَ، وأدخلَ الحِجرَ فيها، وجَعلَ لها بابَينِ لاصقَينِ بالأرضِ شرقيًّا وغربيًّا[٢].

ولما قَتله الحجَّاجُ بنُ يوسفَ في خلافةِ عبدِ المَلِك بنِ مروانَ كَتبَ الحجَّاجُ إلى عبدِ المَلِك: إنَّ ابنَ الزُّبيرِ زادَ في البيتِ ما ليسَ منه، وأَحدثَ بابًا آخرَ، واستأذنَه في ردِّ البيت إلى ما كان عليه فأَذِنَ له ففَعل، وبناها الحجّاجُ على حُكمِ بناءِ قريشٍ، وسدَّ البابَ الذي في ظهرِها، وتَركَ سائرَها لم يُحرِّك منه شيئًا[٣].

فهذا البيتُ اليومَ على حُكمِ ما بناهُ ابنُ الزُّبيرِ، ما عدا جدارِ الحِجْرِ فإنه مِن بناءِ الحَجّاج.

ولما حجَّ عبدُ المَلِك بنُ مروانَ بعدَ ذلك، وسَمِعَ بحديثِ عائشةَ نَدِمَ وجَعلَ يَنكت[٤] الأرضَ بقضيبٍ كان في يدِه ساعةً طويلةً، ثمَّ قال: «وددتُ واللهِ أني تركتُ بناءَ ابنِ الزُّبيرِ وما تحمَّلَ مِن ذلك»[٥].

---

(١) انظر: «مسند أحمد» (٤١/ ١٦٣)، وهو في «صحيح مسلم» (٢/ ٩٧٣).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (٢/ ٩٧٠).

(٣) انظر: «أخبار مكة» للأزرقي: (١/ ٢٩٤).

(٤) في النسخ: «ينكث»، والصوابُ المثبت، ومعناه: الخطُّ بالعُود في الأرض، قاله النوويُّ في «شرحِ صحيح مسلم» (٣/ ٢٢٦).

(٥) انظر: «صحيح مسلم» (٢/ ٩٧١).

وقد ذَكرتُ في كتابي «تشويقِ الأنامِ إلى حجِّ بيتِ اللهِ الحرامِ»[١] صفةَ بناءِ ابنِ الزُّبيرِ وقريشٍ وإبراهيمَ، وأنَّ البيتَ بُنيَ عشرَ مراتٍ منذُ زمنِ آدمَ عليه السلام إلى ابنِ الزُّبيرِ.

ولما حجَّ هارونُ الرشيدُ رحمه الله سألَ الإمامَ مالكًا عن هَدْمِ الكعبةِ، وردِّها إلى بناءِ ابنِ الزُّبيرِ عملًا بالأحاديث الواردةِ بذلك، فقال مالكٌ: «يا أميرَ المؤمنينَ، أَنشدُكَ اللهَ لا تَجعلْ هذا البيتَ مَلعبةً للمُلوكِ، لا يشاءُ أحدٌ إلا نقضَهُ وبناه، فتذهبُ هيبتُه مِن صُدورِ الناسِ»، فتَرك هارون ذلكَ[٢].

ولم يَزل على حالِه إلى يومِنا هذا، لكنَّه الآنَ قد آلَ إلى السُّقوطِ لطولِ الزمان، فأسألُ اللهَ تعالى أنْ يُوفِّقَ سلاطينَ بني عثمان، أُولي الأمنِ والإيمان، والرِّفعةِ والشانِ، لبناءِ البيتِ الحرامِ، على حُكمِ مرادِ رسولِ اللهِ عليهِ الصلاةُ والسلام، كما بناه عبدُ الله بنُ الزبيرِ الإمام، لا على حُكمِ مُرادِ الحجَّاجِ تبعًا لكفَّارِ قُريشٍ اللِّئام، فإنهم أرادوا برفعِ بابِهِ عُسرَ دُخولِه؛ حتى لا يدخُلَه إلا مَن شاؤوا مِن الأنام.

***

(١) وهي مطبوعة ضمن هذا المجموع بحمد الله.

(٢) أورده ابنُ عبد البرِّ في «التمهيد» (١٠/ ٤٩).

[تاريخُ بناءِ المسجد الحرام وتوسعتُه]

واعلَم أيَّدك الله تعالى: أنَّ المسجِدَ الحرام كان سابقًا بُقعةً فسيحَةً حولَ الكعبَةِ للطائفينَ بغيرِ جدارٍ يُحيطُ به، بل كانت الدُّورُ مُحدِقةً به مِن جميعِ جوانبِه، وبينَ الدُّورِ أبوابٌ يَدخلُ الناسُ منها، واستمرَّ كذلِكَ إلى خلافةِ عمرَ رضي الله عنه، فلمّا كَثُر الناسُ وَسَّعَ عمرُ المسجدَ، واشترى دُورًا وهدمَها وزادها فيه، وبَنى للمسجِدِ جِدارًا قصيرًا دونَ القامةِ مُحيطًا به.

ولما استُخلِفَ عثمانُ وَسَّعَ المسجِدَ أيضًا، واشترى دُورًا وأَدخلها فيه، واتخذَ للمسجِدِ الأروقةَ، وهو أولُ مَن اتَّخذَها له.

ولما استُخلِفَ ابنُ الزُّبيرِ وسَّعَ المسجِدَ أيضًا، واشترى دُورًا وزادَها فيه، وهَدمَ الكعبةَ، وبناها على حُكمِ الحديثِ كما تقدَّم.

ولما استُخلِفَ عبدُ المَلِك لم يَزِد فيه، لكنه رَفعَ جُدرانَه وسَقفَه، وعمَّرَه عِمارَةً حسنة، وأمرَ أنْ يُجعلَ في رأسِ كلِّ أُسطوانةٍ خمسينَ مثقالًا مِن الذهب.

ولما استُخلفَ الوليدُ ابنُه وَسَّعَ المسجدَ أيضًا، وبناه بناءً مُحكَمًا، وزَخْرفه وسَقَفه بالساجِ، ونقلَ إليه أساطينَ الرُّخام، وأَرسلَ ستةً وثلاثينَ ألفَ دينارٍ تُضرَبُ صفائحَ على بابِ الكعبةِ وميزابِها.

ولما استُخلِفَ أبو جعفرٍ المنصورُ وَسَّعَ المسجِدَ أيضًا على الضِّعفِ مما قبلَه، وزخرفَه بالذهبِ، وزيَّنه بأنواعِ النُّقوش.

ولما استُخلِفَ المَهديُّ ابنُه وَسَّعَ المسجدَ أيضًا، واشترى دُورًا بأموالٍ جَزيلةٍ وزادَها فيه، وكانت كسوةُ الكعبةِ قد تراكمَتْ عليها لكثرتِها، فخِيفَ سُقوطُها منها،

فجرَّدها المهديُّ وطَلى جُدرانَها بالغاليةِ[١] والمسكِ والعَنبرِ مِن داخِلِها وخارجِها، وكساها بالخزِّ والدِّيباج، وفرَّقَ في الحرمَين ثلاثينَ ألفَ ألفِ دِرهَمٍ جاءَ بها مِن العراقِ، وثلاثَمئةِ ألفَ دينارٍ جاءتْ إليه مِن اليمنِ، ومئتَي ألفَ ثوبٍ وخمسينَ ألفًا، ثم رَجعَ إلى بغداد.

ولما حجَّ بعدَ ذلكَ مرةً أُخرى رأى الكعبةَ ليستْ في وسطِ المسجدِ بل في جانبٍ منه، فعَزمَ على الزيادةِ فيه بحيثُ تصيرُ الكعبةُ في وسطِ المسجدِ، وجَمعَ المهندسينَ فقالوا له: لا يُمكنُ ذلكَ إلا بهدمِ دورٍ كثيرةٍ وتكثيرِ[٢] المُؤنَة، ولعلَّ ذلكَ لا يتمُّ، فقال المهديُّ: لا بدَّ مِن ذلكَ، ولو أنفقتُ عليه جميعَ مالِ بيتِ المالِ، وشرعَ في ذلكَ لكنه ماتَ قبلَ إتمامِه، رحمه اللهُ تعالى.

ولما استُخلِفَ الهادي ولدُه سنةَ: تسعٍ وستينَ ومئةٍ بادرَ إلى إتمامِه، فأتمَّه على أكملِ الوُجوهِ والزَّخرَفة.

ولما استُخلِفَ المعتَضِدُ باللهِ سنةَ: تسعٍ وسبعينَ ومئتينِ وَسَّعَ المسجِدَ الحرام أيضًا، وَجدَّدَ عِمارتَه، وأَمرَ بأنْ يُحكَمَ بناءُ المسجِدِ غايةَ الإحكام، وأن يُبنى على وجهِ الإتقانِ والاستحكام، ولا أَعلمُ بعدَه أحدًا مِن الخلفاءِ والسلاطينِ زادَ فيه، ولعلَّ ذلكَ لاتِّساعِه وعدَمِ الحاجَةِ إليه.

---

(١) جاء في «تاج العروس» (٣٩/ ١٨٤): «الغالية: الطِّيب، أوَّلُ مَن سماها بذلك سليمانُ بنُ عبد المَلِك كما في «الصحاح»، وقال عبد القادر البغداديُّ: هي ضربٌ مِن الطيب، سماه به معاويةُ، وذلك أنَّ عبد الله بنَ جعفرٍ دَخل عليه ورائحةُ الطيب تَفوح منه، فقال له: ما طيبُكَ يا عبد الله؟! فقال: مسكٌ وعنبرٌ جمع بينَهما دُهنُ بانٍ، فقال معاوية: غاليةٌ! أي: ذاتُ ثمنٍ غالٍ».

(٢) في (ش): «تكثر».

مـا عاشَ مَـن عاشَ مَذمُومًـا خَصائلُه ولـم يَمُتْ بخصـالِ الخَيْرِ مَـن ذُكِرا[(١)]

وأما مسجِدُ النبيِّ ﷺ بالمدينةِ الشريفة، فقد زادَ فيه الإمامُ عمرُ بنُ الخطابِ وعثمانُ بنُ عفّانَ، وعمرُ بنُ عبدِ العزيز، والمهديُّ، والمأمونُ، وكان السلطانُ أحمدُ رحمه الله قد شَرعَ في تجديدِه على حُكمِ بناءِ المسجدِ الحرام، وبَنى فيه بعضَ شيءٍ، ثم مات رحمه الله قبلَ إتمامِ ذلك كما تقدَّم.

* * *

(١) جاء البيت في «مجاني الأدب» (٢/ ٧٧) هكذا:

مـا عـاش مَـن عـاش مذمومًـا خصائلُه ولـم يمـتْ مَـن يكـنْ بالخيـر مَذكُـورًا

[هل الزيادة على بناء المسجد الحرام لها حكمُ المسجدِ الأصلي؟]

واعلَم أيّدكَ اللهُ تعالى: أنَّ هذه الزيادةَ لها حُكمُ المسجدِ الأصليِّ بلا ريبٍ، مِن حيثُ صِحَّةُ الاعتكافِ وتحريمُ مُكثِ الجنب، وأظنُّ ذلكَ بالإجماعِ، واختلَفَ الفقهاءُ في ذلكَ مِن حيثُ الثوابُ؟

والذي اختارَه فقهاؤُنا كما في كتابِ «الإقناعِ» و«المنتهى» و«التنقِيحِ» و«الإنصافِ»[١]، وجزمتُ بهِ في كتابي «غايةِ المُنتهى»[٢] في الفقه: أنَّ مِن المسجِدِ ما زِيدَ فيه حتى في الثوابِ في المسجِدِ الحرام، في أنَّ كلَّ صلاةٍ في الزائدِ بمئةِ ألفِ صلاةٍ كالأصليِّ، وأنَّ الصلاةَ المَنذُورةَ في المسجِدِ الحرام تُجزِئُ فيه.

وعندَ جمعٍ مِن الفقهاء وحُكيَ عن السلف: أنَّ المسجدَ النبويَّ كذلك خلافًا لجماعةٍ مِن الفقهاءِ كابنِ عَقيلٍ وابنِ الجوزيِّ، وهو ظاهِرُ كلامِ الشافعيَّةِ، وتوقَّفَ الإمامُ أحمدُ فيه[٣].

قال بعضُ المُحقِّقينَ مِن أصحابِنا: وظاهرُ كلامِهم أنَّ المسجِدَ الحرامَ نفسُ المسجِدِ.

وقيلَ: حَرمُ مكةَ كلُّه مسجدٌ، وحدُّ حَرمِ مكةَ مِن طريقِ المدينةِ: ثلاثةُ أميالٍ، ومِن جهَةِ اليمنِ: سبعةٌ، ومِن جهةِ العراقِ كذلكَ، ومِن جهةِ الطائفِ وبطنِ نَمِرةَ كذلكَ، ومِن جهةِ الجِعرّانةِ: تسعةٌ، ومِن جهةِ جدَّةَ: عشرةٌ، ومِن بطنِ عُرَنةَ: أحدَ عشرَ.

واعلَم: أنَّ هذه الزيادةَ لا تُشترَطُ لكونِها مسجدًا التلفُّظُ بالوقفيَّة، بل تصيرُ مسجِدًا بمُجرَّدها، ومَن قال باشتراطِ التلفُّظِ فقولُه مردودٌ؛ بأنهُ لم يُنقَل عن أحدٍ مِن الخلفاءِ ممَّن زادَ في المسجِدَين الشريفَين أنه قال: وقفتُ هذا الزائدَ مسجدًا.

فتأمَّل هذه التحريراتِ فإنها نفيسةٌ جدًّا.

---

(١) «الإقناع» (١/ ٣٢٣)، «شرح المنتهى» (١/ ٥٠٢)، «التنقيح» (ص١٧٠)، «الإنصاف» (٣/ ٣٣٦).

(٢) انظر: «مطالب أولي النهى» (٢/ ٢٣٤).

(٣) انظر: «الإقناع» (١/ ٣٢٣).

[الإنفاقُ على الحرمَين الشريفَين والقدسِ الشريف]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

الصدقاتُ الجزيلَة، والحسناتُ الجميلَة، الواصلةُ منهم إلى الحرمَينِ الشريفَين، وإلى القدسِ الشريف، والخليلِ المُعظَّمِ المُنيف، مِن الذهبِ والفضَّةِ والغلال، مما لا يُمكِنُ ضبطُه وحصرُه.

فربما تبلُغُ النقودُ الواصلَةُ إلى هذهِ الأمكنةِ مِن جهةِ السَّلْطنَةِ والأوقافِ في كلِّ سنةٍ فوقَ المئةِ ألفِ دينارٍ، بحيثُ لو فُرِّقَتْ على وَجهِها لاستغنى الفقراءُ بتلكَ الأماكِن، وربما يُصرَفُ على العساكرِ والمَحامِلِ المُعدَّةِ لحفظِ الحاجِّ وكسوةِ الكعبةِ، وقلاعِ طريقِ الحاجِّ كلَّ سنةٍ نحوُ ثلاثمئةِ ألفِ دينارٍ.

وربما تبلُغُ الغِلالُ المَوقوفَةُ على الحرمَينِ بأعمالِ مصرَ المحروسةِ كلَّ سنةٍ نحوَ مئةِ ألف إردبٍّ[(١)]، وخمسينَ ألفَ إردَبٍّ حنطةً مِن أوقافِ السلطان أحمدَ ومحمَّدٍ ومُرادٍ وسَليمٍ وسليمانَ وسَليمٍ، وكذا الموقوفُ على الخليلِ عليه السلامُ، وتكيَّةِ القدسِ الشريف.

وكان أوَّلُ مَن عَمل الصِّرَّ[(٢)] الرُّوميَّ للحرمَينِ الشريفَينِ[(٣)] مِن آلِ عثمانَ: السلطانُ يِلْدِرِم بايَزِيد، ثمَّ ابنُه السلطان مرادٌ[(٤)]، فكان يُرسِلُ للحرمَينِ

---

(١) انظر ما تقدَّم عن الإرْدَب.

(٢) الصِّر: ما يُحبس للحرمَين، انظر: «تاج العروس» (١٢/ ٣٠٧).

(٣) «الشريفين» زيادةٌ مِن (أ) و(ب).

(٤) وجاء في بعض المراجع أنَّ أولَ مَن أرسل الصُّرَّةَ العثمانيةَ إلى الحرمَين الشريفَينِ هو السلطانُ محمد جلبي بنُ بايزيد (ت٨٢٤هـ)، انظر: «الإعلامَ بأعلام بيتِ الله الحرام» (ص٢٦٩)، و«نصرةَ أهلِ الإيمان بدولة آل عثمان» (ص٦٠).

الشـريفَينِ فـي كلِّ سـنةٍ: ثلاثـةَ آلافِ دينارٍ وخمسـمئةٍ، ولأشـرافِ مكةَ مثـلَ ذلكَ.

ثمَّ السلطان بايَزيدُ والدُ السلطانِ سليمٍ فاتحُ مصرَ، فكان يُرسِلُ للحرمَينِ الشريفَينِ الصُّرَّ في كلِّ سنةٍ: أربعةَ عشرَ ألفَ دينارٍ[1].

وإذا وَرد عليه أحدٌ مِن أهلِ الحرمَينِ إلى ديارِ الرُّومِ بالغَ في إكرامِه وإنعامِه.

ثم إنَّ السلطانَ سَليمًا فاتحَ مصرَ ضاعفَ ذلك، ورتَّبَ للحرمَينِ أيضًا كلَّ عامٍ: سبعةَ آلافِ إرْدَبٍّ حنطةً.

ثم إنَّ السلطانَ سُليمانَ ولدَه ضاعفَ جميعَ ذلكَ، وصارَ يُرسِلُ ذلكَ في كلِّ عامٍ بدفترٍ محفوظٍ، وأمينٍ وكاتبٍ يَقسِمُه في الحَرمِ الشريف، ولم يَقعْ لأهل الحرمَينِ مثلُ هذا الإحسانِ مِن المُلوكِ السالِفةِ في قديمِ الزمانِ؛ لكونِ هذه الصدقَةِ على وجهِ الاستمرارِ بخلافِ صدقاتِ الخلفاءِ والسلاطين السالِفين، فإنها إنما كانت تَرِدُ في بعضِ الأحيان، أو حينَ يَحجُّ خليفةٌ أو سلطان، لكنَّ المرحومَ السلطانَ قايتباي كانَ قد وَقفَ قرًى وضِياعًا على أهلِ الحرمَين، وكان ريعُها يُرسَلُ إليهم، وكذلكَ المرحوم السلطانُ جَقمَقُ قبلَه.

ثـم إنَّ السـلطانَ مـرادًا ومحمدًا وأحمـدَ بالَغوا فـي ذلك بما هو فـوقَ الحصرِ والحساب،

ضاعـف الله أجورَهـم يـومَ الحشـر والحسـاب، وبوَّأهـم مِـن الجنـة غُرفًا مع الكواعِـب الأتراب.

***

(١) طُبع مؤخَّرًا «دفترُ الصُّرَّةِ العثمانية الشريفة» للسلطانة صفيةَ (ت١٠١٤هـ) أمِّ السلطانِ محمدٍ الثالث، وفيه الشيءُ العجيبُ عن تعظيم الحرمَين، وتوقيرِ أهلِها، وكفايةِ علمائِها، وفيه مقدِّمةٌ مفيدةٌ عن الصُّرَّة وتاريخِها وأنواعِها.

[الضرائبُ التي يعود نفعُها على العلماء ومراكزِ التعليم]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

أنَّ الشؤونَ السلطانيَّ ـ وهو موضِعُ خَزنِ الغِلالِ بمصرَ المحروسةِ ـ ربما يَدخلُه في كلِّ سنةٍ مِن الغِلالِ ما يزيد على ثمانمئةِ ألفِ إرْدَبٍّ، بحيثُ إنَّ الناظرَ إلى تلك الغِلالِ يَراها كأمثالِ الجبالِ وتِلال الرِّمال، مِن قمحٍ وشعيرٍ وفولٍ وعدَسٍ وحِمِّصٍ، كلُّها تدخُلُ في الشؤونِ على سبيلِ أنْ تُصرفَ على العساكرِ، والفقهاءِ والعلماءِ، والقضاةِ والفقراءِ، والمجاورِينَ بالجوامع والزَّوايا.

ومنها: التقاعدُ والجَوالي بمصرَ والشامِ وحلبَ التي جُعلَتْ لأنْ تُصرَفَ على الفقهاءِ والعلماءِ والفُقراءِ ونحوِهم، تَبلغُ أُلوفًا مِن الدنانيرِ لا تَنحصِر.

والجوالي: هي ما تؤخذُ مِن أهلِ الذِّمَّةِ مِن الجزيَةِ، وكلُّها جعلَها السلطانُ سليمانُ وظائفَ للعلماءِ والصُّلَحاءِ والمشايخ، وكان يَخرجُ منها شيءٌ قليلٌ لبعضِ المشايخِ في أيامِ دولة الجَراكسَة، رحمةُ الله عليهم أجمعين، وعلى سائر مُلوك المسلمين، آمين.

وبالجملةِ: فما يَصرِفُه آلُ عثمانَ مِن خزائِنهم في وُجوهِ الخيراتِ والصدَقاتِ المُرتَّباتِ لا يُحصَى مِقدارُها، ولا يُستَقصى انحصارُها، وناهِيكَ بكثرةِ هذهِ الخيراتِ، واستمرارِ هذهِ المبرَّاتِ، لكنْ كثيرٌ مِن حواشيهم والمتصرِّفينَ عنهم ربما أخطؤوا طريقَ الإصابة، وربما ظنَّ أحدُهم أنه قد أصابَ الصوابَ وهو ما أصابَه!

فاللهُ تعالى يُصلِحُ أحوالَ الرُّعاةِ والرَّعية، ويَمُنُّ على المسلِمينَ بعيشةٍ راضيةٍ مَرضيَّة، ويُوفِّقُ للعدلِ الدولةَ العثمانيَّة، آمين.

***

[عدمُ التعدِّي على أوقاف السلاطينِ السابقين]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

تبقِيةُ هذه الأوقافِ المَوقُوفةِ مِن جانبِ السلاطِينِ السالفين، والأُمراءِ السابقِين، وإجراؤُها على سَنَنِ شُروطِ الواقفين، وعدمُ التعرُّضِ لها بشيءٍ يَشين.

فانظُر إلى مكارمِ أخلاقِ المرحوم السلطانِ سَليمٍ لما استولى على مصرَ كيف لم يتعرَّضْ لأوقافها التي وقفها أعداؤُه، بل أقرَّها على حالِها وأجراها على شُروطها، ولم يَتعرَّض لها بتغييرٍ ولا تَبديل.

وأعجبُ منه حيثُ لم يتعرَّضْ لوقفِ عدوِّهِ السلطانِ الغُوريِّ، ولا لمدرسَتِه بشيءٍ يَشين، بل أقرَّها هي وأوقافَها على ما كانت عليه زمنَ واقفِها، مع أنه قاسى الجَهدَ والمَشقَّةَ، وبادتْ عساكِرُه بسببِ السلطانِ الغُوري.

فهل هذه إلا مكارمُ أخلاقٍ لا يفعَلُها أحدُنا مع أقلِّ أعدائِه لو ظَفِر به؟!

ومَن يَمنعُ السلطانَ سَليمًا أو غيرَه لو أبطلَها؟!

مع أنَّ هذه الأوقافَ إنما هي مِن بيتِ مالِ المسلمينَ[1]، وليست بأوقافٍ حقيقةً بل صوريةً؛ لأنَّ الأرضَ على مذهبِ الحنابلةِ[2] والمالكيَّةِ[3] قد وُقِفتْ على

---

(١) في (أ) و(ب) هنا زيادةُ: «ولو تيسَّرَ للسلطانِ أَعطى المُستحقِّينَ حقوقَهم مِن بيتِ المالِ على وفقِ الشرعِ الشريفِ، إنْ كان كعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ لساغَ له أنْ يُبطِلَها ويُدخِلَها في بيتِ المالِ مراعيًا في ذلك المصلحةَ، وإيصالَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وإلا مُنعَ مِن ذلكَ، كمنعِه مِن صرفِ بيتِ المالِ على غيرِ مستحقِّيهِ، أو ما لا مصلحةَ فيهِ؛ لأنَّ هذهِ الأوقافَ إلخ».

(٢) انظر: «الفروع» (٦/ ١٦٥).

(٣) انظر: «التاج والإكليل» (٤/ ٥٦٨).

المسلمينَ مِن زمنِ الفتحِ العمري: فتحِ الإمامِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه كما نقلَه العلماءُ الأعلام، وبَسطتُ الكلامَ على ذلك في كتابي: «تهذيبِ الكلامِ في حُكمِ أرضِ مصرَ والشام»[1].

ومذهبُ الحنفيَّةِ[2] والشافعيَّة[3]: أنها لم تُوقفْ زمنَ عمرَ بنِ الخطاب، لكنَّها لبيتِ المالِ مُرصدةٌ على مصالحِ المسلمين.

وعلى كلِّ تقديرٍ: فوقفُ المُلوكِ والسلاطين لهذه الأراضي لم يصحَّ؛ لأنَّ المالكِيَّ والحنبليَّ يقولُ: الموقوفُ لا يُوقَف، وهذِه موقوفةٌ مِن قبلِ الآنَ مِن زمن عمرَ بنِ الخطاب.

والحنفيُّ والشافعيُّ يقولُ: مِن شَرْط صحَّةِ الوقفِ أنْ يكونَ مِلْكًا لواقفِه، والأرضُ المذكورةُ ليست بمِلْكٍ لأحد، بل هي لعمومِ المسلمينَ، والسلطانُ كواحدٍ منهم!

ومِن ثَمَّ قال المُحققونَ مِن علماءِ الحنفيةِ وغيرِهم[4]: إنَّ شُروطَ الواقفِينَ مِن الأمراءِ والسلاطينِ لا يَجِبُ العملُ بها، وإنَّ المُدرِّسَ يستحِقُّ مَعلومَ التدريسِ حيثُ كانَ أهلًا قائمًا بالتدريسِ في أيِّ محلٍّ كان، ولو لم يَقرأْ في المدرسةِ التي شَرطَ الواقِفُ قراءةَ الدرسِ بها، وشرطُه: لاغٍ غيرُ مُعتبرٍ، ولا مُعتدٌّ به في ذلك.

وقد صرَّحَ كثيرٌ مِن أئمَّتنا كالمرحوم شيخ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ[5] وغيرِه: «أنَّ

---

(١) وهو مطبوع ضمن هذا المجموع بحمد الله.

(٢) انظر: «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٢٥٥).

(٣) انظر: «تحفة المحتاج» (٦/ ٥٨).

(٤) انظر: «قواعد الأوقاف» للمفتي الحمزاوي: (ص٩٤).

(٥) «المستدرك على مجموع الفتاوى» (٤/ ٩٢).

ما يَأخذُه الفقهاءُ مِن هذِه الأوقافِ فهو كرزقٍ مِن بيتِ المالِ للإعانةِ على الطاعةِ والعِلم، لا أنه كجُعلٍ أو أُجرةٍ».

ولو لم نَقُلْ بهذا للزِمَ ارتكابُ الحرامِ الصريحِ في الاشتراكِ في الوظائفِ؛ حيثُ يُجعل لكلِّ شخصٍ نصفُ أو ثُلثُ تدريسٍ أو طلبٍ أو غيرُ ذلكَ مِن الوظائفِ التي يقعُ فيها الاشتراك.

والوقفُ الصحيحُ لا يجوزُ في الوظيفةِ المَشروطَةِ لمُدرِّسٍ أو طالبٍ أنْ يشترِكَ فيها اثنانِ فصاعدًا.

وقد وَقعَ ـ كما نقلَ العلماءُ بالتاريخِ وغيرُهم مِن الفقهاء ـ أنَّ السلطانَ بُرْقُوقًا صاحبَ مصرَ وأوَّلَ سلاطينِ الجَراكسَةِ أرادَ أن يَنقُضَ هذهِ الأوقافَ ويُبطلَها كلَّها، وقال: إنها أُخِذَت مِن بيتِ المالِ، وقد استغرقَتْ نصفَ أراضيه، وعَقدَ لذلكَ مجلِسًا حافلًا حضرَه شيخُ الإسلامِ السراجُ البُلقِينيُّ إمامُ الشافعيَّة، والشيخُ أكملُ الدِّينِ شيخُ الحنفية، وقاضي القضاةِ ابنُ جماعةَ.

فقال البُلقِينيُّ: أمّا ما وُقِفَ على العلماءِ وطَلبةِ العِلمِ فلا سبيلَ إلى نقضِه؛ لأنَّ لهم في بيتِ المالِ أكثرَ مِن ذلك، وهو لا يصِلُ إليهم، وأمّا ما وُقِفَ على فاطمةَ وخديجةَ وعائشةَ ـ يعني بذلك: الوقفَ[1] على الذُّريةِ ونحوِه ـ فإنه يُنقض، ووافقَه الحاضرونَ مِن العلماء على ذلك[2].

وكان أوَّلُ مَن أَحدثَ وقفَ أراضي بيتِ المالِ على جهات الخيرِ كالمدارسِ السلطانُ نورُ الدين الشهيدُ صاحبُ دمشقَ، ثم السلطانُ صلاحُ الدين يوسفُ بنُ

(١) في (أ) و(ب): «الواقف».

(٢) ذَكر هذه الواقعةَ المقريزيُّ في «المواعظ والاعتبار» (٤/ ٨٩).

أيوبَ صاحبُ مصرَ، لما استَفتيا شيخَ المذاهبِ ابنَ أبي عصرون[1]، وكان مُتصِلًا بهما مُعظَّمًا عندَهما؛ لعِلْمِه ودِينِه، فأفتاهما بالجوازِ على معنى أنه إرصادٌ وإفرازٌ لبيت المالِ على بعضِ مُستَحقِّيه؛ ليَصِلُوا إليه بسهولةٍ، لا أنه وقفٌ حقيقيٌّ؛ إذ مِن شَرطِ المَوقوفِ أنْ يكونَ مِلْكًا للواقفِ، والسلطانُ ليسَ بمالكٍ لذلك، ووافقَ ابنَ أبي عصرونَ على فتواهُ ومُرادِه جماعةٌ مِن أئمةِ المذاهبِ الأربعة مِن علماءِ عصرِه[2].

وقال الحافظُ الجلالُ السيوطيُّ[3]: «أفتى جميعُ علماءِ ذلك العصرِ كالسُّبكيِّ وولدَيه وابنِ الزملكانيِّ وابنِ عَدْلانَ وابنِ المرحَّل[4] وابنِ جماعةَ والأذرعيِّ والزركشيِّ والبُلقِينيِّ والإسنويِّ وغيرِهم: بأنَّ هذه الأوقافَ إرصاداتٌ، لا أوقافٌ حقيقةٌ[5]»، انتهى.

قلتُ: لكنْ هنا إشكالٌ وارِدٌ على العلماء، وهو: أنَّ هذِه الأوقافَ حيثُ لم يصِحَّ وقفُها ـ هو المختارُ الذي صار إليه المحقِّقونَ مِن العلماء، بل كلُّ مَن يَعرف الفقهَ ـ فكيف ساغ لنا معشرَ المفتِينَ والحكامِ الفتوى والحكمُ بصحَّةِ الإجارةِ الواقعةِ مِن الناظرِ؟! مع أنَّ كونَه ناظِرًا لم يصحَّ لعدَمِ صحَّةِ الوقفِ، ولم أرَ مَن تعرَّض لهذا الإشكالِ ولا للجوابِ عنه!

---

(١) هو العلامة المُقرئ، والفقيه القاضي أبو سعدٍ عبدُ الله بنُ محمدِ ابنِ أبي عصرونَ الشافعيُّ المَوصلي الدمشقي (ت٥٨٥)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ١٢٦).

(٢) وانظر المسألةَ في «مطالب أُولي النُّهى» (٤/ ٣٣٢).

(٣) ذَكر ذلك السيوطيُّ في رسالته «النَّقل المستور في جواز قَبض المعلوم مِن غير حُضور» (ق٢٣٧/ أ).

(٤) في النُّسخة (ش): «المرجل»، وفي (أ) و(ب): «المرجد»، والصوابُ المثبتُ الموافقُ لنصِّ رسالة السيوطيِّ، وهو الفقيه محمدُ بنُ عبد الله الدمشقي (ت٧٣٨)، ويُقال له: ابن المرحَّل، انظر: «الأعلام» (٦/ ٢٣٤).

(٥) في (ش): «حقيقية»، والمثبتُ موافقٌ لنصِّ رسالة السيوطي.

وقد ذكرتُ جوابَه مع المناقشاتِ والأحكامِ الكثيرةِ التي ليسَ هذا محلُّها في كتابي: «تهذيبِ الكلامِ في حُكمِ أرض مصرَ والشام»، فراجِعْه تظفرْ بالمَرام(١).

إذا علمتَ هذا فاعلَمْ: أنَّ الواجبَ على الحُكّامِ وولاةِ الأنامِ المُتصرِّفينَ عن السلطانِ أنْ يُولُّوا في هذه الوظائفِ الأحقَّ فالأحقَّ شرعًا.

فلا يجوزُ أنْ يُولُّوا في وظيفةٍ مَن ليسَ بأهلٍ لها، ولا زيادةً عن الحاجةِ والكفايةِ، فليتَّقوا اللهَ ربَّهم فإنَّ مَرجِعَهم إليه، وسيَقِفُون غدًا بينَ يدَيه، ولا يُعطُوا منها للمستحِقِّ إلا بقدرِ الحاجةِ والكفايةِ، ثم يُعطونَ(٢) المُحتاجَ المُستَحِقَّ، وإلا فقد أَعطَوا مَن لا يَستَحِقُّ، وحَرموا المُستَحِقَّ.

ويجبُ على الحُكام أنْ يَحرِصوا على تقريرِ مَن هوَ أهلٌ للوظيفةِ فيما هوَ أهلٌ له وإنْ لم تصحَّ الوقفيَّةُ في الأصلِ، وأنَّ الشروطَ لاغيةٌ، لكنْ لمّا أَقرَّ السلطانُ الأوقافَ التي أُفرزتْ مِن بيتِ المالِ على ما هي عليه؛ ليصِلَ المُستَحِقُّون إلى حقوقِهم بسهولةٍ، فالواجبُ اتباعُ ما أَقرَّه السلطانُ، وعدَمُ العُدولِ عنه، وأَمرُه في ذلكَ مطاعٌ واجِبُ الاتِّباع.

وحينئذٍ فالفقيهُ يُقرَّرُ في تدريسِ الفقه، والعالمُ بالتفسيرِ يُقرَّرُ في درسِ التفسير، والعالمُ بالفرائضِ يُقرَّرُ في تدريسِ الفرائض، والعالمُ بالحديثِ يُقرَّرُ في درسِ الحديثِ، والحنفيُّ يُقرَّر في التدريس الحنفي، والحنبليُّ في التدريس الحنبلي، وهلُمَّ جرًّا...

---

(١) «تظفر بالمرام» زيادةٌ مِن (أ) و(ب).

(٢) كذا في النُّسخ.

ومَن قُرِّرَ فيما ليسَ له بأهلٍ وجبَ عزلُه منه، وإخراجُهُ عنه، ومَن لم يَقمْ بوظيفته وجبَ أنْ يُبدَّلَ بمن يقومُ بها إنْ لم يتُبْ، ويَلتزِم الواجبَ.

وقال العلامة الحافظ السيوطيُّ(١): «قال الدَّميريُّ في «شرح المنهاجِ»(٢) في باب الجِعالة: سألتُ شيخَنا ـ يعني: الإمامَ الإسنوِيَّ(٣) ـ مرَّتَين عن غَيبةِ الطالبِ عن الدرس: هل يستحِقُّ المعلومَ أو يُعطى بقسطِ ما حَضر؟ فقال: إنْ كانَ الطالِبُ في حالِ انقطاعِه يشتغِلُ بالعلمِ استَحقَّ وإلا فلا، ولو حَضرَ الدَّرسَ ولم يكنْ بصَدَدِ الاشتغالِ لم يَستَحِقَّ؛ لأنَّ المقصودَ نفعُه بالعِلمِ، لا مُجرَّدُ حضورِه، وكان يَذهبُ إلى أنَّ ذلكَ مِن بابِ الإرصاد»، انتهى كلامُه.

هذا، وقد صارتْ هذه التي وقفها السلاطينُ والأمراءُ على العلماء وطلبةِ العلم والمشتغلينَ بالخير؛ ليَستَعينوا بها على ما هم بصدَدِه: إنما يُولِّي قضاةُ زمانِنا هذا فيها مَن يَبذل لهم فيها الدنيا وإنْ كان جاهلًا، فيُقرِّرون حينئذٍ بالرِّشوة مَن لا يَستَحق، ويَمنعون المُستَحِقَّ، فلزِمَ على هذا في زمانِنا هذا انحصارُ الوظائفِ الدينيةِ في أربابِ الدنيا الدنيَّةِ، فيُعطَون منها ما شاؤوا وإنْ كانوا جُهّالًا، ويُمنَعُ منها الفقراءُ وإنْ كانوا علماءَ صُلحاءَ أبدالًا، وهذا أمرٌ مشاهَدٌ لا يُنكرُ، لا سيما في مصرَ خصوصًا الفقراءَ الأفاضِلَ بالجامعِ الأزهرِ(٤).

---

(١) نصُّ السيوطيِّ هذا في رسالته «الإنصاف في مسائل الأوقاف»، انظر: «الحاوي للفتاوي» (١/ ١٨٥).

(٢) «النجم الوهاج» (٦/ ٩٩).

(٣) التفسير مِن الإمام السيوطي.

(٤) جاء هنا في (أ) و(ب) عوضًا عن العبارة المُثبتة إلى آخر هذا الباب: «واعلَم: أنَّ هذه الوظائفَ والخيراتِ الجاريةَ لم يَقِفْها واقفُوها ليَتفاخرَ بها مُستحِقُّوها، ويَتكاثروا بها في الدنيا، ويتوسَّعوا بها في لذائذِ الأطعمةِ والشهوات، ويَتطاولوا بها على الفقراء، وإنما وَقفُوها بقصدِ الأجرِ والمَعونَةِ =

وهؤلاءِ القضاةُ ـ وفقهم الله ـ يأخذون مِن التَّركات؛ لأجل القِسمة العُشرَ، فيا ليتَهم يأخذون في هذه الوظائف مِن الفقراء الخُمْسَ، ويُعطونهم حقَّهم منها؛ ليَدفعوا عنهم بذلك العَرَّةَ[1]، بل صار كثيرٌ مِن القضاة إنما يأخذ مِن الأغنياء في الوظيفة قيمةً مثلَها، ويُمنع الفقراءُ الأفاضلُ بالمرَّة.

وليت هؤلاء القضاةَ يَغلطون مرَّةً ويُعطون الفقراءَ في بعضِ الأحيان، كما كان يَفعل ذلك القضاةُ الماضيةُ في سالف الزمان، فيَسترون بذلك عيوبَهم، ويُحصِّلون مطلوبَهم، فإنَّ الحسنةَ بعَشر أمثالها، وخيرٌ مِن كثير مِن حطام الدنيا القليل مِن حلالها، ويكون...[2] أصحاب السيف، على حدِّ قولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

ومِن العجب: أنَّ بعضَ فقراءِ العلماءِ بمصرَ المُنقطِعِينَ بالجامع الأزهر للإفتاء والتدريس والتصنيف، بلغه: أنَّ حسين باشا ـ لطف الله به ـ إذا توجَّه إليه أحدٌ مِن طلبة العلم بوظيفةٍ فإنه يُقرِّره فيها، فتوجَّه إليه ذلك العالم الفقيرُ بوظيفة، فقرَّره الباشا فيها وقال له: لا تنسَ السلطانَ مِن صالح دُعائِك، ولم يُؤدِّ على ذلك، فتوجَّه شخصٌ مِن أبناء الدنيا إلى القاضي، وذلك الشخصُ له معرفةٌ تامة بمخالطة القضاة،

= على طلبِ العلمِ والطاعاتِ والقُربات، والتناوُلُ منها بقدرِ الحاجَةِ، ثم يُعطى منها للمحتاجِ. وأما التكاثرُ والتفاخرُ ـ لو قيلَ بإباحتِه ـ والتوسُّعُ الزائدُ فإنما هو إذا كان مِن كسبِ يدِ الشخصِ، كالتجارةِ والزراعةِ ومباشرةِ الأسبابِ والأعمال. وليسَ هذا بمَحلِّ بسطِ الكلامِ على مثل هذا، وفيما ذكرْناه كفايةٌ لمن تدبَّرَ ومعرفةٌ بأنَّ ما تقرَّرَ محضُ ظُلمٍ ومُنكَرٍ، لا يقولُ به جاهلٌ فضلًا عن عالمٍ، ولا كافرٌ فضلًا عن مسلمٍ، والأمرُ إلى اللهِ تعالى مِن هذهِ البِدعِ القبيحةِ، والظلماتِ الصريحةِ».

(١) العَرَّة: الخَلَّة القبيحة، كما في «القاموس المحيط» (١/ ٤٣٨).

(٢) في النسخة: (ش) طمسٌ هنا بمقدار أربعِ كلماتٍ تقريبًا.

وإعطاءِ الرِّشوة لهم، والتلاعبِ بعقولهم، وله مِن الوظائف كلَّ يومٍ نحوُ خمسِ مئةِ عثماني، وبذل للقاضي الرِّشوةَ، وتقرَّر في تلك الوظيفة التي تقرَّر فيها العالمُ الفقير المنقطع ابتغاءَ مرضاةِ الله تعالى والدُّعاءِ للسلطان.

وتقريرُه باطلٌ مِن جهات:

ـ **أحدُها**[1]: أنَّ له في الوظائف فوقَ كفايتِه، وقد تقرَّر عندَ العلماءِ المحقِّقين كما تقدَّم: أنَّ هذه الوظائفَ مِن قَبيل بيت المال، فلا يجوز أنْ يُعطى أحدٌ منها أزيدَ مِن كفايته.

ـ **ثانيها**: أنَّ هذه الوظائفَ الواجبُ فيها أنْ يُقدَّمَ الأحوجُ فالأحوجُ، وهذا العالمُ الفقيرُ أحوجُ منه بلا نكير.

ـ **ثالثها**: أنَّ الواجبَ عندَ التعارضِ والتزاحمِ تقديمُ مَن نفعُه أكثرُ وأنفعُ للمسلِمين، وهذا العالمُ الفقيرُ أنا أعرفُ منه أنه قاطعٌ زمانَه إفتاءً وتدريسًا وتصنيفًا، وله عدَّةُ مصنفاتٍ نفيسةٍ نافعةٍ سارتْ بها الرُّكبان في أطراف البلدان، وذلك الشخصُ المذكورُ لا إفتاءَ ولا تصنيفَ، ولا تدريسَ فيما هو مقرَّرٌ فيه مِن تداريس الفقه والفرائض والحديث؛ لعدم معرفته بذلك، بل لو لم يكن مِن نفعه المُتعدِّي إلا حَجرُه على الفقراء الأفاضلِ باستيلائه على وظائفَ لا تَنحصر لكان في ذلك كفايةٌ للقاضي المُنْصِف.

ـ **رابعها**: الفقيرُ تَقرَّر لله تعالى، وهذا الشخصُ تَقرَّر بالدنيا، وما كان لله فهو

---

(١) في النسخة: (ش) هنا طمسٌ، وقد تَّممتُ العبارةَ مِن قراءة الأستاذ عبد الله الكندري في تحقيقه لهذا الكتاب، فجزاه الله خيرًا.

الحقُّ الصحيح، وما كان للدنيا فهو الباطلُ الفاسد، وقد بذل للقاضي رِشوةً لها وقعٌ في النفس.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لعنةُ الله على الراشي والمُرتَشي»، رواه الإمام أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ وابنُ ماجه(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لَعن الله الراشيَ والمُرتَشيَ في الحُكْم»، رواه الإمام أحمدُ والترمذيُّ والحاكم(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «لَعن الله الراشيَ والمُرتَشيَ والرائشَ الذي يَمشي بينَهما»، رواه الإمام أحمد(٣).

ونُقل عن عمرَ بنِ الخطاب وعليِّ بنِ أبي طالبٍ وعبدِ الله بنِ مسعودٍ وعبدِ الله بنِ عباس ومسروقٍ رضي الله عنهم في قول الله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ نزلتْ في اليهود، كانوا يَسمعون لمن يَكذب عندَهم، ويأخذون الرِّشوةَ ممن يَحكمون له، والهديةَ ممن يَشفعون فيه(٤).

وقد أَجمع العلماءُ مِن لدُنْ محمدٍ ﷺ إلى يومنا هذا على أنَّ الحُكْمَ بالرِّشوةِ والهوى حرامٌ، وأنه باطلٌ وإنْ وافق الحقَّ والصوابَ، وإنما ذكرتُ حكايةَ هذه الواقعةِ هنا؛ لما فيها مِن مناسبةِ المقام، مع ما اشتملتْ عليه مِن معرفة الأحاديث والأحكام.

---

(١) «مسند أحمد» (١١/ ٣٩١)، «سنن أبي داود» (٥/ ٤٣٣)، «سنن الترمذي» (٣/ ١١٦)، «سنن ابن ماجه» (٣/ ٤٤١).

(٢) «مسند أحمد» (١٥/ ٨)، «سنن الترمذي» (٣/ ١٥)، «المستدرك على الصحيحين» (٤/ ١١٥).

(٣) «مسند أحمد» (٣٧/ ٨٥).

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٣١٩).

واعلَمْ أيَّدكَ اللهُ تعالى: أنَّ هذه الوظائفَ المَوقوفةَ مِن جانب المُلوك والسلاطينِ، على العلماء والمدرِّسينَ، وطلبةِ العلم المُنقطِعين، لم يَقفوها لتكونَ محصورةً في الأغنياء، ويُمنعَ منها الفضلاءُ الفقراء، بل إنما وَقفوها بقصد الأجر والثواب، والمَعونةِ على الاشتغال بالعلم وتلاوةِ الكتاب، وجبرِ قلوبِ الفقراء المُشتَغلين، والغرباءِ المُنقطِعين؛ لاغتنام صالح دعواتهم، في خلواتِهم وجلواتِهم،...... [1] ثم يُعطى منها للمحتاج، ويُقدَّم الأكثرُ نفعًا فالأكثر نفعًا، والأَحوجُ فالأَحوج.

ولقد حَكى كثيرٌ مِن العلماء[2]: أنَّ السلطان العادل نورَ الدِّين الشهيد الذي كان هو الفاتحَ لباب وقفِ الأوقاف على العلماء وطلبةِ العِلم، قيل له: إنك قد وقفتَ أوقافًا عظيمةً على العلماء والفقراء والصوفية، فلو استعنتَ بها الآنَ في الجهاد وعطايا الجندِ وجوامكِ[3] العسكر لكان أمثلَ، فغضب رحمه الله وقال: «والله إني لأرجو النصرَ بأولئك، فإنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم[4]، كيف أَقطع صدقاتِ قومٍ يُقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهامٍ لا تُخطئ؟! يعني بذلك: دعواتِهم الصالحةَ، وأَصرفها إلى مَن لا يُقاتل عني إلا إذا رآني بسهامٍ قد تُخطِئ وقد تُصيب».

وقد أَفردت هذا بكتابٍ سمَّيتُه: «إيقافَ العارفين على حُكم أوقافِ السلاطين».

***

(١) في النسخة: (ش) طمسٌ هنا بمقدار أربعِ كلماتٍ تقريبًا.

(٢) حكى هذه القصةَ ابنُ الأثير في «الكامل في التاريخ» (٩/ ٣٠٣)، وأبو شامةَ المقدسيُّ في «الرَّوضتَين» (١/ ٣٩٩).

(٣) الجَوامِك: جمعُ جامِكِيَّة، وهي كلمةٌ فارسية معناها: مرتبٌ مقدَّرٌ مِن بيت المال للجند ونحوِهم، انظر: «تكملةَ المعاجم العربية» (٢/ ١٢٧).

(٤) يُشير إلى قوله ﷺ: **«هل تُنصرون وتُرزَقون إلا بضُعفائِكم؟!»**، رواه البخاري: (٤/ ٣٦).

[محبَّةُ الرعايا لهم]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

مَيلُ قلوبِ الرَّعايا إليهم، وثناؤُهم بالحسنِ الجميلِ عليهم، فلا تجِدُ أحدًا مِن الرَّعايا يَذكرُهم بسوءٍ، ويَنسبُ إليهم ما لا يَليقُ، بل كلُّهم يُثنون ويَدعُونَ ويُحبُّون، فلا تجِدُ أحدًا مِن رعاياهُم إلا وهو يُحبُّهم ويَدعو لهم بالنصرِ والتأييد، حتى إنك تجِدُ الصغيرَ والكبيرَ مِن ذكرٍ وأُنثى إذا ذُكِرَ السلطانُ يقولُ: «نصرَهُ اللهُ تعالى»، «اللهُ ينصرُ السلطانَ»، وكأنَّ الله تعالى قَذفَ في قلوبِ رعيَّتِهم حُبَّهم، وقَذفَ في قلوبِ سائرِ الناسِ تعظيمَهم، وهو دليلٌ على محبة اللهِ تعالى وملائكتِه لهم.

رَوى أبو نُعيمٍ في «الحِلْية»(١) عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا أحبَّ اللهُ عبدًا قَذفَ حُبَّه في قلوبِ الملائكةِ، ثم يَقذِفُه في قلوبِ الآدميين، وإذا أَبغض عبدًا قَذفَ بُغضَه في قلوبِ الملائكة، ثم يَقذِفُه في قلوبِ الآدميين».

وفي حديثٍ آخرَ: «إذا أحببتُم أنْ تَعلمُوا ما للعبدِ عندَ ربِّهِ فانظُروا ماذا يَتبعُه مِن الثناء»(٢).

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٧)، ثم قال عقبَه: «هذا حديثٌ صحيحٌ ثابتٌ مِن حديث أبي صالحٍ عن أبي هريرة، غريبٌ مِن حديث مطرٍ وأنس، لم نكتبْه إلا مِن حديثِ معمَرٍ عن يوسفَ بنِ عطيَّة»، ويوسفُ هذا متروكٌ.

وأما حديثُ أبي هريرةَ الذي أشار إليه أبو نعيم، فقد رواه البخاريُّ: (٩/ ١٤٢) وغيرُه، ونصُّه: «إنَّ الله تبارك وتعالى إذا أحبَّ عبدًا نادى جبريلَ: إنَّ الله قد أحبَّ فلانًا فأحبَّه، فيُحبُّه جبريل، ثم يُنادي جبريلُ في السماء: إنَّ الله قد أحبَّ فلانًا فأحبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماء، ويُوضَع له القَبولُ في أهل الأرض».

فرضي الله عن الإمام الحافظ أبي نعيم، ولله درُّه على وَجازَةِ عبارتِه ودقَّتِها وغزارتِها.

(٢) رَوى الإمامُ في «الموطأ» (٢/ ٩٠٤): عن عمِّه أبي سُهيلٍ بن مالك، عن أبيه، عن كعب الأحبار أنه =

وسلاطينُ بني عثمانَ خَلق الله لهم الرِّفعةَ والشان، فمحبَّتُهم مَركُوزةٌ في طباع الناس، وما تولّى سلطانٌ منهم وتَمنّى أحدٌ زوالَه، بل تجِدُ الرَّعايا قاطبةً داعيةً له بالنصرِ وطولِ العُمر، بخلافِ غيرِهم مِن الملوكِ والسلاطينِ، فإنَّ كثيرًا مِن رعاياهم يَكرهُهم، ويَتمنّى زوالَهم، ويَنسبون إليهم الظُّلم، وسلاطينُ بني عثمان إذا حدثَتْ مظلمةٌ فما تجد أحدًا يَنسبها إليهم، وإنما تُنسَبُ لحواشِيهم والمتصرِّفين عنهم، ولا يُقدَحُ ذلكَ في حقِّهم حيثُ لم يَعلموا، ويَجزِمُ كلُّ أحدٍ أنهم لو عَلموا لأَزالوا تلكَ المَظلمة.

وإنْ وَقع أذًى أو ضررٌ مِن النصارى لمراكبِ المسلمين، تجدُ الناسَ يَلهَجونَ بأنَّ هذا مِن عدمِ نصيحةِ الحواشي وعدمِ اعتنائِهم، وأنَّ السلطانَ لا يَشعرُ بذلك، ولو عَلم به لأزالَه، ولقَمَعَ النصارى والموالينَ أشدَّ القمْع، ولرَدَعَهم أعظَمَ الرَّدْع.

***

= قال: «إذا أحببتُم أنْ تَعلموا ما للعبدِ عندَ ربِّه، فانظروا ماذا يَتْبعه مِن حُسن الثناء».

[تعميرُ سورِ المدينة والقدس، وإجراءُ المياهِ لمكة]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

تعميرُ سورِ المدينةِ المشرَّفةِ وتحصينُها[١].

وتعميرُ سورِ بيتِ المقدِسِ وصَونُها[٢].

وبذلُ الأموالِ الجزيلَةِ عليهما صَونًا لهما عن تغلُّبِ عدوٍّ مارِقٍ، أو مُفسدٍ منافقٍ.

وإجراءُ الماءِ في الجبالِ الشواهقِ إلى بيتِ المقدسِ مِن مسافةٍ بعيدةٍ وإلى غيرها.

ومِن أعظمِ الخيراتِ وأفضلِ القرباتِ العامَّةِ النفعِ: هو إجراءُ المياهِ العذبةِ الكثيرةِ إلى مكةَ المشرَّفةِ بعدَ انقطاعِ عينِ حُنَينٍ، التي أجرتْها زُبَيدةُ زوجةُ هارونَ الرشيدِ، وبلغَتْ نفقتُها فيها: ألفَ ألفِ مثقالٍ وسبعَمئةِ ألفِ مثقالٍ مِن الذهب.

فلما تمَّ عملُها اجتمعَ المباشِرونَ والعمّالُ لديها، وأَخرَجوا دفاترَهم للحسابِ؛ ليَخرُجوا مِن عُهدةِ ما تسلَّموه مِن خزائنِ الأموالِ، وكانت في قصرٍ مُشرفٍ على الدِّجلَة، فأَخذَتْ منهم الدفاترَ ورمتْها في البحر، وقالت: «تركْنا الحسابَ ليومِ الحساب، فمَن فضلَ عندَه شيءٌ مِن بقيَّةِ المالِ فهو له، ومَن بقِيَ له عندَنا شيءٌ أعطيناه»، ثم أَلبستْهم الخِلعَ والتشاريف، وأَمرتْ أيضًا

(١) انظر حولَ تاريخِ سورِ المدينة ووصفه «سِمْطَ النجوم العوالي» (٤/ ٩٤)، و«مرآة الحرمين» (١/ ٤١٠).

(٢) انظر حولَ تاريخِ سورِ مدينة القدس وما حولَها في كتاب «الحضرة الأُنسية في الرحلة القدسية» للشيخ عبد الغني النابلسيِّ: (ص٩٧) وما بعدَها.

بإجـراءِ عيـنِ وادي نعمـانَ إلى عرفـةَ، ثم منه إلـى مُزدلِفـةَ، ثم منه إلـى جبلٍ خلفَ مِنًـى، ثـم يَنصَـبُّ إلى بئـرٍ عظيمـةٍ مطويَّـةٍ بالأحجارِ، وتُسـمّى: عيـنَ زُبيـدةَ، إليها يَنتهـي عمـلُ هـذه العين(١).

وكانت الملوكُ والسلاطينُ تُجدِّدُ عينَ حُنَينٍ الجاريةَ إلى مكةَ، ثم انقطَعتْ في أوائلِ الدولةِ العثمانيَّةِ بحيثُ بِيعَت القِرْبةُ بدينارٍ، فأَمرَ السلطانُ سليمانُ في سنةِ: إحدى وثلاثينَ وتسعِمئة بتجديدِ عينِ حُنَينٍ وعينِ عرفاتٍ فجُدِّدا، وكثُرَ الماءُ بعدَ ذلكَ بعرفاتٍ وبمكةَ، واستمرَّتْ عينُ حُنينٍ جاريةً إلى مكةَ، لكنَّها تَقِلُّ تارةً وتكثُرُ أُخرى بحسبِ قلَّةِ الأمطارِ وكثرتِها.

وعينُ عرفاتٍ تجري مِن نعمانَ إلى عرفاتٍ بكثرَةٍ إلى أنْ صارتْ عرفاتٌ بساتينَ، ثم قلَّت الأمطارُ في سنة: ستينَ وتسعِمئة، وانقطعَت العيونُ إلّا عينَ عرفاتٍ، وحَصلَ لأهلِ مكةَ الجَهدُ.

فلمـا بَلـغَ السـلطانَ سـليمانَ ذلـكَ أَرسـلَ يَفحـصُ عـن إجـراء العيـونِ إلى مكـةَ، فاجتَمـعَ الـرأيُ أنَّ أقـوى العُيون عيـنُ عرفـاتٍ، وأنَّ أعلامَها ظاهـرةٌ إلى بئرِ زُبَيـدةَ خَلْـفَ مِنًـى، وغلـبَ على ظنِّهم أنهـا مبنيَّـةٌ أيضًا إلى مكـةَ، ولكنَّها دَرَسَـتْ ونُسِـيتْ استغناءً عنهـا بعينِ حُنَيـنٍ، ثم حَـزروا بعـدَ أنْ ذَرعـوا الأرضَ ووجَدُوها خمسـةً وأربعيـنَ ألفَ ذراعٍ بـذراعِ البنّائين(٢)، فوجـدُوا المصروفَ علـى ذلكَ يَبلغُ ثلاثيـنَ ألـفَ دينارٍ.

ثـم أَرسـلوا وعَرضـوا ذلـكَ علـى السـلطانِ سـليمانَ فـي سـنة: تسـعٍ وسـتينَ

---

(١) انظر في ذلك «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» (ص٣٣٧).

(٢) ذراع البنائين: تُعادل ٧٥ سم تقريبًا، انظر: «الأوزان والمقادير» لإبراهيم سليمان: (ص٥٦).

وتسعِمئة، فطَلَبَتْ بنتُ[1] السلطانِ[2] أنْ يكونَ المصروفُ مِن عندِها، تتشبَّه بزُبيدةَ زوجةِ هارونَ الرشيدِ، فأجابها السلطانُ سُليمانُ إلى ذلكَ، وأَرسلتْ خمسينَ ألفَ دينارٍ بزيادةِ عشرينَ ألفًا، وعُيِّنَ لهذه الخدمةِ دفتردارُ مصرَ إبراهيمُ[3]، فتوجَّه إلى مكةَ بعزمٍ وهمةٍ ظانًّا أنه يَفرغُ مِن هذه الخدمةِ فيما دونَ السَّنة ويَرجعُ للسلطانِ، فينالُ بذلكَ أعلى المناصِب، وليسَ الأمرُ كما ظنَّ.

فشَرعَ إلى أنْ اتَّصل عملُه بعملِ زُبَيدةَ إلى البئرِ التي انتهى عمَلُها إليها، ثم لم يُوجَد بعدَ ذلكَ للقناةِ رسمٌ ولا أثرٌ، بل وَجدَ الأرضَ صخرًا في غايةِ الصلابةِ فضاقَ صدرُه، وعلِمَ حينئذٍ أنَّ زُبيدةَ إنما تركَتْ ذلك اضطرارًا لا اختيارًا، وأنها إنما عدلَتْ إلى عينِ حُنَينٍ لصلابةِ الحَجَرِ وطولِ مسافةِ ما يجِبُ قطعُه، فإنه يُحتاجُ مِن بئرِ زُبيدةَ إلى نقرٍ تحتَ الأرضِ في الحَجَرِ الصَّوّانِ، طولُه فوقَ ألفِ ذراعٍ بذراعِ البنّائينَ، حتى يتَّصلَ إلى عينِ حُنَينٍ، ثم يصِلَ إلى مكةَ، ولا يُمكِنُ نقبُ ذلكَ الحَجَرِ تحتَ الأرضِ، فإنه يحتاجُ في النزولِ إلى خمسينَ ذراعًا في العُمقِ، وصارَ لا يمكِنُ

---

(١) وجاء في «منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم» (٣/ ٣٥٣): «زوجة السلطان»، وهو خطأٌ أو تحريفٌ.

(٢) هي السلطانة مِهْرماهْ بنتُ السلطان سليمان.

(٣) إبراهيم بن تَغْري بَرْدِي الدفتردار (ت٩٧٤) ليلةَ الاثنين الثاني مِن رجبٍ، ودُفن بالمعلاة على يمينِ الصاعد إلى الأبطح في تربةٍ أعدَّها له، ودُفن بها ابنان له ماتا قبلَه، وهو الذي أشار على السلطان سليمانَ القانونيِّ ببناء المدارس السليمانية؛ لتدريس المذاهب الأربعةِ بمكةَ المكرمة، فرحمه الله وجعله في جنات النعيم، وانظر ما تقدَّم عن هذه المدارس.

انظر: «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» (ص٣٥٠)، و«منائحَ الكرام» (٣/ ٣٥٧)، و«المنحَ الرحمانية في الدولة العثمانية» (ص١٢٦).

تركُ ذلكَ بعدَ الشروعِ فيه حفظًا لناموسِ السَّلْطنةِ العثمانيَّة، وما وَجدَ حيلةً غيرَ أنْ يَحفِرَ وجهَ الأرضِ إلى أنْ يَصلُوا إلى الحَجَرِ الصَّوّانِ، ثم يُوقِدَ عليه بالنارَ مقدارَ مئةِ حِملٍ مِن الحَطبِ الجَزْلِ[1] ليلةً كاملةً في مقدارِ سبعةِ أذرُعٍ، في عرضِ خمسةٍ مِن وجهِ الأرضِ، فيَلِينَ الحجَرُ فيكسِرونَه بالحديدِ، إلى أنْ يَصلوا للحَجَرِ الصُّلبِ فيُوقَد عليه كذلك.

فاستمرُّوا إلى أنْ فَرغَ الحَطَبُ مِن جميعِ جبالِ مكةَ، فصارَ يُجلَبُ مِن المسافاتِ البعيدة، فغلا سِعرُ الحطَب، وضاقَ الناسُ لذلك، وصارَ كلَّما فَرغَ المصروفُ يُرسِلُ يَطلبُ مصروفًا آخرَ، إلى أنْ صرَفَ أكثرَ مِن خمسمئةِ ألفِ دينارٍ مِن خزائن السَّلطنَة، وتَعِب إبراهيمُ الدفتردارُ لذلك، ولم يَزل في العَمْلِ إلى أنْ مات، فأُقيمَ مُقامَه الأميرُ قاسمٌ أميرُ جدَّةَ[2] قائم مقام[3]، أقامَه السيدُ حسن صاحبُ مكةَ[4].

ثم أَرسلَ يعرِضُ ذلكَ على السلطانِ سُليمانَ، فوَجدُوه قد ماتَ رحمه الله، وتولَّى ولدُه السلطانُ سَليمٌ، فعَيَّنَ لخِدمَتِها محمد بيك دفتردارَ مصرَ[5]، فبَذلَ في ذلكَ جَهدَه، ثم بعدَ مُدَّةٍ ماتَ، فأُقيمَ مُقامَه أميرُ جدةَ المذكورُ، ثم عُرِضَ ذلكَ على السلطانِ سَليمٍ، فوَردَ الأمرُ باستمرارِه ومُباشرتِه العملَ، وأنْ يكونَ

(١) الجَزْل: ما عَظُم مِن الحَطَب ويَبِس، «مختار الصحاح» (ص٥٧).

(٢) انظر حولَه في «المنح الرحمانية في الدولة العثمانية» (ص١٢٧).

(٣) الأصل في مصطلح (قائم مقام): هو مَن ينوب عن الغير في منصبه، انظر: «المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية» (ص١٧٠).

(٤) أمير مكة حسن بن أبي نمي الشريف (ت١٠١٠)، انظر: «خلاصة الأثر» (٢/ ٢).

(٥) انظر حولَه في «المنحِ الرحمانية في الدولة العثمانية» (ص١٨٣).

القاضـي حسـينٌ[(١)] ناظـرُ المسـجدِ الحرام ناظـرًا على مـا بقِيَ مِـن العَمْلِ.

ثم بعدَ مدةٍ ماتَ الأميرُ قاسمٌ سنةَ: تسعٍ وسبعينَ وتسعِمئة.

ثمَّ عُرِضَ الأمرُ بذلكَ على السلطانِ سَليمٍ، فوَردَ أمرُه بأنَّ القاضي حسينًا المذكورَ يُباشِرُ هذا العملَ المبارك، فشَرعَ فيه القاضي حسينٌ بجِدٍّ واجتهادٍ، وساعدَته السعادةُ والإقبالُ، فكمُلَ له المقصودُ فيما دونَ خمسةِ أشهرٍ بعدَ أنْ عَجزوا عن إتمامِه قريبًا مِن عشرةِ أعوامٍ، ووَصلَ الماءُ إلى مكةَ في ذي القَعدةِ الحرام سنةَ: تسعٍ وسبعينَ وتسعِمئة، ففرِحَ الناسُ بذلكَ، وأَرسلوا البشائرَ للسلطانِ سَليمٍ، فأَنعمَ بمزيدِ الإنعاماتِ والترقياتِ لجميعِ المباشرينَ لهذِه الخدمةِ، وحصلَ للقاضي حسينٍ الترقياتُ العظيمَة، وجُهِّزَتْ إليه أنواعُ الخِلَعِ الفاخرَة.

وصارتْ هذه العينُ العامَّةُ النفعِ بمكةَ المشرَّفةِ مِن حسناتِ آلِ عثمانَ.

ولمـا رَجـعَ الحـاجُّ مِن حَجَّـةِ سـنةِ: ثلاثينَ وألـفٍ أَخبـروا أنَّ الماءَ فـي تلكَ السـنةِ قـد قـلَّ بمكـةَ وغـلا ثمنُـه، وحَصـلَ للنـاسِ مشـقَّةٌ بسـببِ خلـلٍ حصل في قنـاة العيـنِ المذكورةِ، وفسـادٍ حَصـلَ بها.

فاللهُ تعالى يُوقِظُ لذلكَ الدولةَ العثمانيةَ، والسَّلْطنةَ الإسلاميَّة السنيَّة، ويُلهِمُها ما أَجراها عليه مِن العوائدِ السنيَّةِ، مِن المبادرَةِ إلى فعلِ الخيراتِ، والمثابرَةِ على إجراءِ الحسناتِ والقُربات، آمين.

* * *

(١) هو ناظرُ المسجد الحرام حسينُ بنُ أحمدَ الحسينيُّ المالكي المكي (ت٩٩٠)، وَلي القضاءَ بالمدينة المنورة، وتولى عدَّةَ مناصبَ بمكةَ المكرمة، انظر: «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» (ص٣٤٤)، و«سِمْطَ النجوم العوالي» (٤/ ٣٤٧)، و«النورَ السافر» (ص٤٩٦).

[اتساعُ دولتِهم]

ومِن فضائل سلاطين بني عثمانَ:

ومفاخرِ مَن فاقوا مُلوكَ الزمانِ بعلوِّ الرِّفعة والشان، اتِّساعُ مَملكتِهم العظيمة، وأعمالِهم الجسيمَة، واستيلاؤُهم على غالبِ الأقطار، وأعظَمِ البلدانِ والأمصار، بل على غالبِ الرَّبعِ المَعمُور، وأشرفِ ما فيه مِن الأنهارِ والبُحور.

ولا ريبَ أنَّ أعظَمَ البلادِ المَعمورَة، وأشرفَ الأقاليمِ المَمْصورَة: إقليمُ مصرَ والشامِ والعراقِ والحجازِ واليمنِ والمغربِ والرُّوم، وقد استولَتْ هذِه الدولةُ الميمونةُ العثمانية، على جميعِ هذه الأقاليمِ السنِيَّة.

وأما مدينةُ تختِ مُلْكِهم، ومَحلُّ دارِ سَلْطنتِهم القُسطنطينيَّة، فهي كإرمَ ذاتِ العمادِ، التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلاد، وقد خَلَفتْ في المحاسنِ ما اندَرسَ مِن محاسن مصرَ وبغداد، دارِ الخلافةِ والمُلْك ومَعقِلِ الإسلامِ والأجناد، ومَرْبع الكرامِ والأجياد، فهي بهم شريفةٌ مشرَّفةٌ على الوِهادِ والمِهادِ، ولا يُعلَمُ في المُلوكِ مَن مَلكَ كمُلْكِهم، ولا مَن اندَرجَ في مثلِ نَظْمِهم وسِلْكِهم، لا السلطانُ صلاحُ الدينِ وذَوُوه، ولا المَلِكُ الظاهر، ولا السلطانُ أشرفُ قايتباي والغُوريُّ، ولا المَلِكُ الناصر(١).

---

(١) هذا الكلامُ قد يرى فيه البعضُ للوَهلة الأُولى مبالغةً ومجازفة، إلا أنه كلامٌ عن الحُكم المُمتدِّ بشكلٍ عام، لا بمقابلة الأشخاص وبعض الحوادث.

وقد قال المؤرِّخ الجَبَرْتيُّ في «تاريخه» (١/ ٣٧): «ولم تَزل البلادُ منتظمةً في سِلْكهم، ومُنقادةً تحتَ حُكمِهم، مِن ذلك الأوانِ الذي استولوا عليها فيه إلى هذا الوقت الذي نحن فيه، وكانوا في صدر دَولتهم مِن خير مَن تقلَّد أُمورَ الأُمة بعدَ الخلفاء المهديين، وأشدِّ مَن ذبَّ عن الدين، وأعظمِ مَن جاهد في المشركين؛ فلذلك اتسعتْ ممالكُهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نُوابهم، ومَلَكوا أحسنَ المَعمُور مِن الأرض، ودانتْ لهم الممالكُ في الطُّول والعرض. =

ولا يرِدُ على قولنا هذا: الخلفاءُ مِن الأُمويينَ والعباسيينَ؛ لأنَّ كلامَنا هذا إنما هو في الملوِك والسلاطين، فقد كان بعدَ اضمِحلالِ الخلافةِ إقليمُ مصرَ والشامِ لسُلْطان، وبغدادُ لسُلْطانٍ، واليمنُ لسُلْطانٍ، وتونسُ الغربِ وأعمالُها لسْلْطانٍ، والرُّومُ لسُلْطانٍ.

وكان هناكَ أيضًا في باقي الأمصارِ والبلدانِ سلاطينُ ذَوو عظمةٍ وشان، وقد استولى على الجميعِ سلاطينُ آلِ عثمان، فصارَتْ مَمْلكتُهم أَوسعَ المَمالك، ومسالكُهم أَوضحَ المسالك.

وأما الخلافةُ فلا يتيسَّرُ لأحدٍ مِن السلاطين أن يَملِكَ سعةَ مُلْكِها، ولا أنْ يَدخلَ في مثل نَظْمِها وسِلْكِها، فقد كانت خلفاءُ بني أمية يَملِكون الصينَ والهندَ والسِّندَ، وخُراسانَ وبلخَ وبُخارى وسمرقندَ، ونيسابورَ والعجَمَ، والرُّومَ والعربَ والعراقَ والشامَ، ومصرَ والحجازَ واليمنَ والمغرِبَ بأسرِهِ والأندلُسَ وسائرَ أقطارِ الإسلامِ، مِن مشرق الأرضِ إلى مغربِها، ومِن أقصَى الجنوبِ إلى أقصى الشمالِ، وكان لا يتولّى أحدٌ في بلدٍ إمارةً في شيءٍ إلا بأمرِ الخليفة.

وكذلكَ أوائلُ خلفاءِ بني العباسِ: كالمنصورِ والمهديِّ والهادي والرشيدِ والمأمونِ والمعتصمِ باللهِ والواثقِ باللهِ والمتوكلِ على الله، لكنَّ بلادَ الأندلسِ كانت قد خرجَتْ عنهم؛ بسببِ تغلُّبِ بعضِ بني أميةَ عليها[1]، واستمرَّتْ في

= هذا مع عدم إغفالهم الأمرَ وحفظَ النواحي والثُّغور، وأقامةِ الشعائر الإسلاميَّة، والسُّننِ المحمديَّة، وتعظيمِ العلماء وأهلِ الدين، وخدمةِ الحرمَين الشريفَين، والتمسُّكِ في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، فتحصَّنتْ دَولتهم، وطالتْ مُدَّتُهم، وهابتْهم المُلوك، وانقاد لهم الممالكُ والمَمْلوك».

(١) أشار إلى عبد الرحمن بنِ معاويةَ بنِ هشامِ بنِ عبد المَلِك (ت١٧٢)، المعروفِ بالداخل وبصقرِ قريش، انظر: «الأعلام» (٣/ ٣٣٨).

أيديهـم خارجـةً عـن مِلْـك بنـي العبـاسِ، وكان الإسـلامُ إذ ذاك غضًّا طريًّـا، وكان روضُ ثمـارِه روضًـا بهيًّا.

ثم بعدَ ذلك اضمحَلَّ أمرُ الخلافة، ولم يزَل أمرُها في إدبارٍ إلى أنْ قُتلَ الخليفةُ المستعصِمُ بالله في دولةِ المارقينَ مِن التتارِ، وتوزَّعت المُلوكُ الأقاليمَ، وتغيَّرتْ تلك الرُّسومُ والمعاليم، وتفرَّقت كلمَةُ المسلمينَ بكثرةِ تعدادِ السلاطين، لكنَّ الله تعالى مِن لطفِه بهذا الدِّين، قد جَمعَ غالبَ ما تفرَّقَ مِن كلمةِ المسلمينَ بالسلاطينِ العثمانيين، وجَمعَ بهم للمؤمنين بينَ العُلا والرِّفعةِ والتمكين، واتسعَت لهم المَمالكُ أيَّ اتساع، وسُلِّمَ لهم الأمرُ بلا نِزاع، واعترفتْ لهم بذلكَ سائرُ ملوكِ الأقطار، وخُطِبَ باسمهم على المنابرِ في غالبِ الأمصار.

وابتهجَتْ بدَولتِهم الدنيا في هذه الأعصار، وقد أصبحَ سلطانُ عصرِنا السلطانُ عثمانُ ـ نصره الله تعالى ـ بينَ المُلوكِ كأنه هالةُ الأقمار.

وقـد أحيـا ما انـدرسَ مِن مذاهـبِ الأخيار، ونِعـمَ الخَلفُ مِن أولئكَ السـلفِ الكـرامِ الأبـرار، افتَتـح دولةَ سـلطنتِه بجهـادِ الكفَّـارِ، وأحيا سُـنَنَ المُرسـلينَ أُولي الأيـدي والأبصـار، وهو عـازِمٌ على الحـجِّ الشـريفِ[1]، فالفخـارَ الفخـار، وربُّك يخلُـق ما يشـاء ويَختار.

ورَوى الإمامُ مسلمٌ في «الصحيح الجامع»[2] عن ابن عمرَ رضيَ اللهُ عنهما

---

(١) عزم السلطان عثمان الثاني على الحج، إلا أنَّ شيخَ الإسلام أسعد أفندي منعه مِن ذلك؛ خوفًا مِن نشوبِ فتنٍ، أو اختلالِ نظامِ الحُكم، وانظر مسألةَ حجِّ السلاطين العثمانيين في كتاب «الدولة العثمانية المجهولة» (ص٢٨٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٣/ ١٤٥٨).

عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المُقسِطينَ عندَ الله يومَ القيامةِ على منابرَ مِن نورٍ عن يمينِ العرشِ[١]، هم الذينَ يَعدِلونَ في حُكمِهم وأهلِيهم وما وُلُّوا».

وفي حديثٍ آخَرَ: «السلطانُ العادِلُ المتواضِعُ ظلُّ اللهِ ورحمتُه في الأرضِ، يُرفَعُ له عملُ سبعينَ صدِّيقًا»[٢].

إذا علِمتَ ذلكَ فاعلَم: أنَّ السلطانَ كلَّما كثُرتْ رَعيَّتُه، وعظُمَ مُلْكُه، وكان مِن المُقسِطينَ، كان مِن أفضَلِ الناسِ وأقربِهم إلى اللهِ تعالى، وأعظَمِهم درجةً، وأكرمِهم مرتبةً.

*** [ذِكرُ أسماءِ المُدنِ التي كانت مركزَ الخلافةِ الإسلامية]:**

فائدةٌ:

كانت قاعدةُ الخلافةِ والمُلْكِ بالمدينةِ الشريفةِ زمنَ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ رضي الله عنهم.

ثم انتقلتْ إلى الكوفةِ زمنَ عليٍّ والحسنِ ولدِه رضي الله عنهما.

ثم انتقلتْ إلى دمشقَ زمنَ معاويةَ رضي الله عنه وزمنَ يزيد.

ثمَّ انتقلتْ إلى مكةَ المشرَّفةِ زمنَ عبدِ اللهِ بن الزبيرِ رضي الله عنه.

ثم انتقلتْ إلى دمشقَ في زمنِ عبدِ المَلِك بن مروانَ، وزمنِ دولةِ بني أميةَ.

وربما سَكنَ هشامُ بنُ عبد المَلِك الرَّصافةَ وعمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وقاعدةُ خلافتِهم دمشقُ.

---

(١) كذا في النسخ كلِّها، والذي في «صحيح مسلم» وغيرِه مِن المصادر الحديثيَّة: «عن يمين الرحمن».

(٢) عزاه في «الجامع الصغير» لأبي الشيخ، وحَكم عليه في «المُداوي» (٤/ ٢٧٠) بأنه باطلٌ منكرٌ، وفي «العلل» لابن أبي حاتمٍ (٦/ ٥٩١): «قال أبو زرعة: هذا حديثٌ منكر».

ثم لما ملكَ السفاحُ سَكنَ الأنبارَ بالعراق.

ثـم لمـا مَلَـكَ أبو جعفـرٍ المنصـورُ بنـى الهاشـميَّةَ(١) وسَـكنها، ثم بنـى بغدادَ وجعلهـا(٢) قاعـدةَ خلافتِـه، واسـتمرَّتْ قاعـدةَ خلافـةِ بنـي العبـاسِ إلـى زمـن المُعتصِـم، فبنـى سُـرَّ مَـن رأى، وجعلَهـا قاعـدةَ خلافتِـه.

ثم بنى الواثقُ هارونُ ابنُه الهارونيَّةَ(٣)، وجعلَها قاعدةَ خلافتِه.

ثم بنى المتوكِّلُ جعفرٌ أخوهُ الجعفريَّةَ(٤)، ونقَلَ قاعدةَ الخلافةِ إليها.

ثم عادَت قاعدةُ الخلافةِ إلى بغدادَ في زمنِ المُعتَمدِ على الله، واستمرَّتْ قاعدةَ الخلافةِ إلى زمنِ المُستعصِمِ الذي قتلَه التتارُ.

ثـم انتقلَـت قاعدةُ الخلافةِ والسَّـلْطنةِ إلى مصـرَ، وكان الأمرُ والنهيُ للسَّـلْطنةِ دونَ الخلافةِ.

ثـم انتقلَـتْ قاعـدةُ السَّـلْطنةِ مِـن مصـرَ إلـى القُسـطنطينيَّةِ العُظمـى فـي زمنِ السـلطانِ سَـليمٍ، ولـم تزل قاعدةُ السَّـلْطنةِ الإسـلاميةِ والدولـةِ العثمانيـةِ إلى يومِنا هـذا، جعلهـا الله تعالى قاعدةَ سَـلْطنةٍ لهم، ودارَ إسـلامٍ إلى ظهـور المهدي الإمام، ونزولِ عيسـى عليه السـلام.

---

(١) قضاء الهاشمية: يَتبع اليومَ لمدينةِ بابلَ العراقية.

(٢) في (أ) و(ب): «وصارت».

(٣) الهارونيـة: موضـعٌ بسـامراء، بَنـى فيهـا الواثـقُ بـالله قصـرَه، وتَـوطَّـن بـه، انظـر: «فتـوح البلدان» (ص٢٩١).

(٤) الجعفريَّة: موضعٌ بسامراء، بَنى فيها جعفرٌ المتوكلُ قصرَه، ثم صارت أكبرَ مِن سامراء، انظر: «مراصدَ الاطلاع» (١/ ٣٣٦).

وكانت بخارى[١] قاعدةَ السَّلْطنةِ في زمنِ بني ساسانَ.

ثم صارتْ غزنةُ[٢] قاعدةَ سَلْطنةِ محمودِ بنِ سُبُكْتِكِينَ وبنَيه.

ثم هَمَذانُ[٣] زمنَ الدولةِ السلجوقيَّة.

ثم خوارِزمُ[٤] زمنَ الدولةِ الخوارزميَّةِ.

ثم دمشقُ زمنَ المرحوم السلطانِ نورِ الدِّين الشهيد، وكانت مملكتُه مِن هَمْدانَ[٥] إلى البربرِ[٦] والنُّوبَة[٧]، وهو الذي اتخذَ الحَمامَ لحملِ الرسائلِ لاتِّساعِ مَمْلكتِه.

وقال فيها القاضي الفاضلُ[٨]:........................

---

(١) مدينة بخارى: تقع اليومَ غربَ جمهوريةِ أُوزبكستان.

(٢) مدينة غزنة: تقع اليومَ في الجنوب الغربيِّ مِن العاصمة كابل في جمهورية أفغانستان.

(٣) في النسخ كلِّها: «همدان»، وهي مدينةُ هَمَذان الإيرانية، ونصَّ في «تاج العروس» (٩/ ٥٠١): على أنَّ المعروفَ بينَ العجمِ إهمالُ داله.

(٤) خوارزم: مدينةٌ كبيرة قديمة، تقع اليومَ غربَ جمهوريةِ أُوزْبكِسْتان وجزءٌ منها بدولة تُركْمانِستان، واسمُها بالأحرف اللاتينية: (Khiva).

(٥) همدان: قبيلة يمنية، تقع قربَ مدينةِ صنعاء، انظر: «الأيوبيون بعدَ صلاح الدين» (ص٨٢١).

(٦) البربر هنا قُصد بها: السواحل الليبية، انظر: «عصرَ الدولة الزنكية» (ص٢٨٠).

(٧) النُّوبَة: تقع الآنَ في شمال السودان، وقسمٌ منها في جنوب مصر، وانظر: «موسوعةَ أطلس العالم» (ص٤٧).

(٨) القاضي الفاضل هو أبو عليٍّ عبدُ الرحيم بنُ عليٍّ اللخميِّ الشامي (ت٥٩٦)، سيرةُ حياتِه مفيدةٌ لا يُغفلَ عنها، وترجمتُه في «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣٣٨) جميلةٌ قِف عليها، ولمقام السَّلْطنة والمُلْك هنا أرغب أنْ أنقلَ لكم شيئًا منها، قال الذهبيُّ: «الإمام العلامة البليغ، القاضي الفاضل، يمين المَملكة، سيِّدُ الفصحاءِ الكاتبُ، صاحبُ ديوان الإنشاء الصلاحي، سمع في الكهولة من أبي طاهرِ السِّلفي، وأبي القاسمِ ابنِ عساكر.

انتهت إليه براعةُ الترسُّل وبلاغةُ الإنشاء، وله في ذلك الفنِّ اليدُ البيضاء، والمعاني المبتكرة، والباعُ =

«الحَمامُ ملائكةُ المُلوك»[١].

وقال فيها بعضُ الشعراء[٢]:

خُضْـرٌ تَفـوتُ الرِّيـحَ فـي طيرانِها[٣] ... يــا بُـعــدَ بــينَ غُدوِّهـا ورَواحِهـا

تأتِـي بأَخـبـاــرِ الـغُـــدوِّ عَـشـيَّـــةً ... لمسِيرِ شـهرٍ تحـتَ رِيـشِ جناحِهـا

وكان لا يَقطعُ البطاقةَ مِن الحَمام إلا السلطانُ بيدِه مِن غيرِ واسطَةٍ، ويُنبَّه إنْ كان نائمًا، ولا يُمهَلُ حتى يأكلَ إنْ كان آكلًا.

وللسلطان نورِ الدِّين الشهيد هذا مفاخرُ ومآثر، وتبعه على طريقته السلطانُ صلاحُ الدِّين رحمهم الله تعالى.

* * *

= الأطول، لا يُدرك شأوُه، ولا يُشقُّ غبارُه مع الكثرة، استخلصه صلاحُ الدِّين لنفسه».

وفي «مرآة الزمان» (٢٢/ ٨٣): «وكان صلاحُ الدِّين يقول في ملأٍ مِن النَّاس: لا تظنُّوا أني ملكتُ البلادَ بسيوفكم، بل بقلم الفاضل».

(١) جاء في «الرَّوضتَين في أخبار الدولتَين» (٢/ ٢٣١): «وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى»، ثم ذَكر هذه المقولة.

(٢) هو ابنُ أبي زيدٍ القَيرواني، عزا له هذَين البيتَين السيوطيُّ في «حسن المحاضرة» (٢/ ٣١٤).

(٣) في (أ) و(ب): «جريانها»، وطُمستْ في (ش).

[ردُّ المؤلِّفِ على مَن يُنكر ذِكرَ فضائلِ آلِ عثمان]

ومِن فضائلِ سلاطين بني عثمانَ:

اتِّصافُهم بمثلِ هذه الأوصافِ الحِسان في مثلِ هذا الزمان، الذي استَحكَم فيه الفساد، وظَهرَ في البرِّ والبحرِ والعِباد، وفسد فيه حالُ العلماء والقضاة والعباد، والقابِضُ على دينِه فيه كالقابضِ على الجمر، لا يجِدُ المؤمنُ فيه مُعاونًا على الخيرِ والأجر.

ولقد اعترضَ عليَّ بعضُ المُنكرينَ فيما أبديتُه مِن فضائلِ سلاطينِ بني عثمان، مع ما لهم مِن الفضائلِ التي لا يُنكِرها إلا كلُّ مُعانِدٍ مَوَتان، ونسيَ قولَه عليهِ الصلاةُ والسلام فيما رواه الشيخان[1]: «على كلِّ مسلمٍ صدقةٌ» قيل: أرأيتَ إنْ لم يجِد؟ قال: «يَعملُ بيديه فينفَعُ نفسَه ويتصدَّقُ»، قيل: أرأيت إنْ لم يستطِع؟ قال: «يعينُ ذا الحاجةِ الملهوف»، قيل: أرأيتَ إنْ لم يستطِع؟ قال: «يأمرُ بالمعروفِ أو[2] الخير»، قال: أرأيتَ إنْ لم يَفعل؟ قال: «يُمسِكُ عن الشرِّ فإنه صدقةٌ».

وإلى هذا المعنى أشار المتنبيُّ[3] بقوله في شعره:

إنا لفي زَمنٍ تَرْكُ القَبيحِ به ... مِن أكثَرِ الناسِ إحسانٌ وإفضالُ

فانظُر أيها الإنسان: أنتَ في أيِّ القرونِ والأزمان؟! زمانٌ قد فاتَ القرنُ

---

(١) «صحيح البخاري» (٨/ ١١)، «صحيح مسلم» (٢/ ٦٩٩).

(٢) المثبتُ مِن (ب)، وهو موافقٌ للمصادر الحديثية.

(٣) انظر: «شرحَ ديوانِ المتنبي» للواحدي: (ص٣٥٢).

العاشِـر، وتقـدَّمَ فيـه الماجـنُ والعاشِـر(١)، وتأخَّـرَ الحـاذِقُ والماهـر، وقـلَّ الغنيُّ الشـاكرُ، والفقيـرُ الصابرُ.

لا يَروْجُ فيه مَن يَنتسِبُ للعِلم إلا كلُّ قَصورٍ دعيٍّ، أو جاهلٍ غبيٍّ، أو يكونُ ذا ثيابٍ جَلِيلة، وأكمامٍ طَويلة، أو ملابسَ مَهُولة، وأذيالٍ مَسدُولة، أو عِمامةٍ كالبُرْج، وأكمامٍ كالخَرْج، يَصدُّ السائلَ بسفَهِه وصخَبِه، ويُوهِمُ الجاهِلَ بعلوِّ منصبِه وكثرةِ كتُبِه، يَقطَعُ الوقتَ بضحِكٍ ودُعابة، أو طُولِ صمتٍ مَشوبٍ بمَهابة، فإنْ حَكى حَكى حِكايةً مَجُونة، أو أنشدَ أنشدَ قصيدةً مَلحونةً، أو ساقَ مسألةً ساقَها بهذيانٍ لا يُعقَل، وتقريرٍ لا يُتعقَّل.

نعمْ، قد أَتقنَ الغِيبةَ وأَحْكمها، وسوَّلتْ له نفسُه الخوضَ في أعراضِ الأكابرِ وحكَّمَها، فما جاء في هذا الزمانِ مِن خيرٍ ونِعمة، أو سرورٍ ورحمة، فهو على خلافِ القياس، وما أَصابكم مِن مصيبةٍ فبما كسبَتْ أيديكم معاشرَ الناس، وكما تكونوا يُولّى عليكم مِن كلِّ قلبٍ ليِّنٍ أو قاس، ولو صَلحَت الرَّعايا لصَلَحتْ وُلاةُ أُمُورِها، وأنْ لو استقامُوا على الطريقةِ لاستقامتْ لمأمُورِها(٢).

لمـا شَـكى النـاسُ لعبـدِ المَلِـكِ بـن مـروانَ مِـن جَـور عُمّالـه كالحجّـاجِ بنِ يوسـفَ وأمثالِـه، صَعَـد عبـدُ المَلِـكِ علـى المنبـرِ وقـال: «أيُّهـا النـاسُ، اتَّقـوا اللهَ تعالـى فينـا وأنصِفونـا مِن أنفسِـكُم نُنصِفْكـم(٣)، تُريـدونَ منا أنْ نسيرَ فيكم سـيرةَ أبـي بكـرٍ وعمرَ في رعيَّتهمـا، ولا تَسـيرونَ معنا سـيرةَ رعيَّتِهما معَهما، فـاللهُ تعالى يُعيـن كُلًّا منـا علـى صاحبِه».

---

(١) المراد بالعاشر هنا: آخذُ أموالِ الناس، انظر: «مختار الصحاح» (ص٢٠٩).

(٢) في (أ) و(ب): «لصلح وُلاةُ أمورِها»، و«لاستُقيم لمأمورِها».

(٣) «ننصفكم» زيادةٌ مِن (أ) و(ب).

وحَكى في «جامعِ الحكاياتِ ولامِع الروايات»: أنَّ الحجّاجَ قال يومًا لرجلٍ: اذهب بهذا الدينارِ إلى سوقِ الصَّيارِف وَزِنْه عندَهم، وسَلْهم عن سيرةِ الحجّاج، فذَهبَ ووَزَنَه عندَ كلِّ واحدٍ منهم، فلم يَختلِف واحدٌ منهم: أنَّ وَزْنَه مثقالانِ إلا قيراطًا، وذَكروا الحجَّاجَ بالسُّوء.

فرَجعَ وأَخبرَ الحجّاجَ فقال: اذهَب إلى ذلك الصيرفيِّ المُنعزِل عن الناسِ فزِنْه عندَه وسَلْه عن سيرةِ الحجّاجِ.

فذَهبَ ووَزَنه، فإذا هو مثقالانِ مِن غيرِ نقصٍ، وأَثنى على الحجَّاجِ حين سُئلَ عنه، وقال: لم أرَ منه إلا خيرًا.

فرَجعَ الرَّجلُ إلى الحجّاجِ وأَخبرَه به فقال: انظُر، هل هذا إلا مِصداقُ قولِ النبيِّ ﷺ: «كما تكونوا يُولّى عليكم»[1]؟!، فهل أنا الظالمُ؟! أو هؤلاءِ اللُّصوصُ الخونَةُ الذين تَواطؤوا على الباطل؟!

وفي بعض الآثار: «يقولُ الله تعالى: أنا المَلِكُ، قلوبُ المُلوكِ بيدي، فأيَّ قومٍ أطاعوني جَعلتُ قلوبَ المُلوكِ عليهم رحمةً، وأيَّ قومٍ عصوني جعلْتُ قلوبَ المُلوكِ عليهم نِقمةً»[2].

---

(١) رواه مرسلاً البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٩/ ٤٩٢) بلفظ: «كما تكونون كذلك يُؤمَّر عليكم»، ثم قال: «هذا منقطعٌ، وراويه يحيى بنُ هاشمٍ وهو ضعيفٌ»، وقال الذهبيُّ في «المغني» (٢/ ٧٤٥) عن يحيى بنِ هاشم: «كذَّبوه ودجَّلوه، وقال النسائيُّ: متروكٌ، وقال ابنُ عَديٍّ: كان يَضع الحديثَ ببغدادَ ويَسرقه».

(٢) جاء في «المصنَّف» لابن أبي شيبة (٧/ ٦٣): «حدثنا عبدُ الله بنُ نُمير، عن مالكِ بنِ مِغولٍ قال: كان في زبور داودَ مكتوبًا: إني أنا الله لا إله إلا أنا، مَلِكُ المُلوكِ، قلوبُ المُلوك بيدَي، فأيما قومٍ كانوا على طاعةٍ جَعلتُ المُلوكَ عليهم رحمةً، وأيما قومٍ كانوا على معصيةٍ جعلتُ المُلوكَ عليهم نِقمةً»، =

وفي بعضِ الآثار: «يقولُ اللهُ تعالى: إذا عصاني مَن يَعرِفُني سلَّطتُ عليه مَن لا يَعرِفُني»[(١)].

واعلَم أيها الناظر: وذا الوجهِ الناضر، والمولى الناصر، أني قصدت بذِكر جَميعِ هذه الفضائل، وتَعدادِ هذه الشمائل، سلاطينَ بني عثمانَ، أُولي الرِّفعةِ والعظمة والشان، وإنما قصدت بذلكَ نفسَ بيتِ أهلِ السَّلْطنةِ المُعظَّمة، وسلالتَهم المُكرَّمَة؛ لأنهم في حدِّ ذاتهم بيتٌ طاهرٌ مقدَّس، ونَسَبٌ فاخِرٌ أَقدَس، غيرُ خالينَ عندَ اللهِ تعالى مِن صِدقِ سريرةٍ، وحُسنِ نيةٍ وسيرةٍ.

وبذلك قرَّتْ لهمُ الرِّياسة، واستقرَّت لهم السياسة، معَ إقامةِ ناموسِ السَّلْطنةِ والمُلْكِ أحسنَ قيام، وانتظامِ أُمورِهم أتمَّ نظام، وخَلَّدوا لهم بذلكَ ذِكرًا يُسطَّرُ في تواريخِ الأخبار، وثناءً يُنشرُ ما تَعاقبَ الليلُ والنهار.

وبالجملةِ فسلاطينُ بني عثمانَ مِن خيرِ مُلوكِ الزمانِ نسبًا وحسبًا، وشهامةً ومروءةً كاملة، وإنعاماتٍ شاملة، و[لهم][(٢)] عزمٌ وحزمٌ ويقينٌ، وجلالةٌ ومهابةٌ وتمكِين، معَ سطوةٍ باهِرَة، وصولَةٍ قاهِرَة، وخِبرةٍ بالسياسة، ومعرفةٍ بالرِّئاسة، وكثرةِ عساكرَ وأجناد، معَ امتثالٍ وأدبٍ وانقياد.

صيتُهم قد ملأَ الخافقَين، وذِكرُهم عمَّ المَغرِبَين والمَشرِقَين.

وهم أجملُ المُلوكِ جمالًا، وأَوسَعُهم أفضالًا ونوالًا، وأَطوَلُهم طَولًا وزمانًا، وأملَكُهم مِلْكًا ومَكانًا، وأَولاهم إفضالًا وإحسانًا.

= ومالكُ بنُ مِغْول: ثقةٌ مِن أتباع التابعين.

(١) هو مِن كلام الفُضيل بنِ عياضٍ، أسنده إليه ابنُ أبي الدنيا في «العقوبات» (ص٣٨)، وأبو نُعيمٍ في «حلية الأولياء» (٨/ ٩١).

(٢) ما بيَن معكوفَتين ليس في النسخ، وإنما زِدته لتستقيمَ الحركةُ الإعرابية.

فاقوا مفاخِرَ بني ساسان، ومآثِرَ بني يُونان،.....[١] الزمان.

أولئـكَ النـاسُ إنْ عُـدُّوا وإنْ ذُكِرُوا ... ومَـن سِـواهُمْ فلَغـوٌ غيـرُ مَعـدُودِ

لـو خَلَّـدَ الدهـرُ ذا عِـزٍّ لـعـزَّتِـه ... كـانُوا أحَـقَّ بتعْمِيـرٍ وتخلِيـدِ[٢]

وليسـتْ شـهادَتي هـذه لعِلَّـةٍ، أو تبريـدِ غَلَّـةٍ، ولسـتُ ممـن يقولُ لأحـدٍ منهم: عسـاه ولعلَّـه، فإنـي عـن خيراتِهـم مِـن التقاعُـدِ قاعـدٌ، والجَوى لـي لا الجَوالـي[٣]، ولكـنْ رحِـمَ اللهُ امرأً عَـرفَ الحقَّ فأَنصَف، ورام الإسـعادَ فأَسـعف، ومِـن الإنصافِ أنْ يقـولَ المـرءُ الحـقَّ ولو علـى نفسِـه، وأنْ يُنـزِلَ النـاسَ منازِلَهم ليرحـم.....[٤].

ففي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**اتَّقوا اللهَ وأَنزلوا**[٥] **الناسَ منازِلَهم**»[٦].

ولا تظنَّ أيها الناظِر، واللبيبُ المسامِر، أني قد بالغتُ في مدحِهم، أو تغاليتُ[٧] في وَصفِهم، بل هم فوقَ ذلك، وأبلَغُ مما هنالك، وما ذكرتُه فإنما هو بعضُ أَوصافِهم الكامِلَة، وفضائلِهم الشامِلَة، وإلا فلو رأيتَهم أيها الناظِرُ لرأيتَ غايةَ الرفعةِ والشان، ولاحَ لك صدقُ اليقينِ والبُرهان، وعرفتَ سرَّ: (ليس الخَبرُ كالعِيانِ)[٨]، ولأنشدت مُرتجِلًا، وقلتَ مُتمثِّلًا:

---

(١) طمسٌ في النسخة: (ش) بمقدار كلمتَين.

(٢) أَوردهما ابنُ كبريتٍ في «رحلة الشتاء والصيف» (ص١٢٧).

(٣) الجَوى: الحُرقة والشِّدة، والجوالي: جمعُ جالية، وهي هنا بمعنى: العطيَّة، وانظر: «مفاتيح العلوم» (ص٨٥).

(٤) طمسٌ في النسخة: (ش) بمقدار كلمتَين.

(٥) في النسخ: «ونزلوا».

(٦) «سنن أبي دواد» (٧/ ٢١٠).

(٧) في (أ) و(ب): «غاليت».

(٨) ورد في الحديث: «ليس الخَبرُ كالمُعاينة»، أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٤١) وهو صحيحٌ.

كانتْ مُساءلَةُ الرُّكبانِ تُخبِرُني عن أحمدَ بنِ سعيدٍ أحسنَ الخَبرِ
ثمَّ التَقينا فلا واللهِ ما سَمِعَتْ أُذْني بأحسنَ مما قد رَأى بصرِي[1]

لا زالَ الوجودُ بدوامِ خلافتهم سنيًّا عامرًا، ولا برِحَ الإيمانُ في أيامِ سلطَنتِهم قويًّا ظاهرًا، وأيَّدَ سبحانه مُلْكَهم، وجَعلَ الدنيا بأسرها مِلْكَهم.

ولا زالت مرفوعةً أعلامُ دَولتِهم إلى مُحيطِ القبَّةِ الخضرا، وجَدَّدَ لهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ عزًّا ونصرًا، ومسرَّةً وبُشرى، وسدَّدَ أقوالَهم؛ فإنَّ ذلكَ أقوى لهم، وجعلَهم دائمًا مسرورِينَ منصورِين، يُتلى مِن بين أيديهِم ومِن خلفِهم: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، آمين.

***

خاتمةٌ

اعلَمْ أيَّدكَ اللهُ تعالى: أنَّ الفقهاءَ قالوا: يُستحَبُّ الدُّعاءُ للسلطانِ.

وكانَ السلَفُ الصالحُ كالفُضَيلِ بن عياضٍ وأحمدَ بنِ حنبلٍ وغيرِهما يقولون: (لو أنَّ لنا دعوةً مُستجابةً لدَعونا بها للسلطان)[2]؛ لأنَّ صلاحَه ـ نصره الله ـ صلاحُ المسلمينَ، فنقول لذلك بهم مُقتدِينَ رضي الله عنهم أجمعين:

اللهمَّ: إنَّ قلوبَنا لم تَزلْ برفعِ إخلاصِ الدعاءِ صادقة، وألسِنتَنا في حالَتي السرِّ والعلَنِ ناطقة، سائلِينَ بلسانِ الضراعةِ وقلبِ الانكسار، باسطِينَ أيدي الذِّلةِ والافتقار، أنْ تُسعفَ المسلمين بإمدادِ هذه الدولةِ المباركةِ العثمانيَّة، السَّلْطنةِ الميمونة الخاقانيَّة، بمزيدِ العُلا والرِّفعةِ والتمكين، وأنْ تُحقِّقَ آمالَنا فيها بإعلاءِ الكلمةِ ففي ذلكَ رفعُ قواعدِ دعائمِ الدِّين، وقمعُ مكائدِ المُلحدِين؛ لأنها الدولةُ التي برئَتْ مِن غشيان الجَنَفِ

---

(١) عزاهما القَلْقشنديُّ في «صبح الأعشى» (٢/ ٣٣٦) لأبي تمّام، مع مغايرةٍ يسيرة.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٨/ ٩١)، و«مجموعَ الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٣٩١).

والحَيفِ[١]، وسلِمتْ مِن طُغيانِ القلَمِ والسَّيف، وسارَ بذِكرِها الشريفُ رِحلةَ الشتاءِ والصيف، وأَوى إلى ظلِّها الوَريفِ ابنُ السبيلِ والضَّيف، ألبَسها اللهُ تعالى لِباسَ العزِّ المَقرونِ بالدوامِ، وحلَّاها بحِلْيةِ النصرِ المُستمرِّ بمُرورِ الليالي والأيام، ولا بَرِحتْ سُدَّةُ أعتابِها ملثومةً بأفواهِ الأكاسرة، وتُرابُ أعتابِها موسُومًا بجباهِ القياصِرَة، خاضعةً لعظمةِ شأنِها أعناقُ الفراعنَةِ والجبابِرَة، مَصُونةً هِمَّتُها عن عوائقِ الزمان، ونِعمَتُها عن طوارقِ الحَدَثان، وتَوالي الجَديدان، ودوامِ الفَرْقدان[٢].

اللهمَّ: وأيِّدِ الإسلامَ وأعلِ كلمةَ الإيمان، ببقاءِ عبدك وابنِ عبدِكَ، الخاضِعِ لعزِّ جلالِك ومجدِك، السلطانِ الأعظَم، والخاقانِ الأكرم، وارثِ الخلافةِ والمُلْك، سُلطانِ العرَبِ والعجِمِ والرُّوم والتُّرك، مَن وَرِثَ المُلْكَ لا عن كَلالة، والسَّلْطنةَ لا عن مَلالة، وأتاهُ يجرُّ أذيالَه، ولم يكُن يَصلحُ إلا له، سلطانُ البرَّين، وخاقانُ البحرَين، وخادِمُ الحرمَين الشريفَين، والبلدَينِ المُنيفَين، أحقُّ مَن ملكَ سريرَ الخلافةِ باستحقاق، وأَولى مَن جَلَس على تختِ السَّلْطنةِ بالاتفاق، وهو الذي وجَّهَ عِنانَ العنايةِ لحمايةِ الإسلامِ بشهادَةِ الإجماعِ، وتلكَ شهادةٌ صادقةٌ لا يتطرَّقُ إليها النزاعُ، مادُّ سُرادِقِ العدلِ على العالمين، سادُّ أبوابِ الظلمِ على الظالمين، ناصرُ الإسلامِ والمسلمين، قاهِرُ الخوارجِ والمشركين، قامِعُ مكائدِ المُلحدِين، رافِعُ قواعِدِ دعائمِ الدِّين، ذُو المفاخرِ التي شهِدَ بفضلِها الخاصُّ والعام، والمآثِرِ التي تَرتفِعُ على الثُّريّا وتُكاثرُ الغَمام، والأخلاقِ التي رام النسيمُ أنْ يُحاكِيَ لُطفَها فأصبحَ عليلًا، والمعالي التي تَخيَّلَ المُلوكُ أنْ يَتشبَّهوا بها فلم يجدوا إلى ذلكَ سبيلًا، المُفتخِرُ على سلاطينِ الدنيا بفخامةِ مملكةٍ تردُّ الأبصارَ حَسرى، وسريرِ سَلْطنةٍ إذا استوى عليه أحيا ذِكرَ

(١) الجَنَف: الميل وعدم العدل، والحَيف: الجَور والظلم.

(٢) هذه وما قبلَها على لغة إلزامِ المُثنى الألفَ؛ لتوافق السَّجع، والله أعلم.

السلفِ الصالحِ وأماتَ ذِكرَ كسرى، إذا سارَ بينَ المواكبِ فما هو إلا القمرُ حُفَّ بالكواكبِ، بصوارمِ سيوفٍ تَقطُفُ حُروفُها أعناقَ المُعتدِين، وأهلَّةِ قِسيٍّ تُرسَلُ نجومُ سهامِها على شياطينِ البُغاةِ والمُتمرِّدين، وصافِناتِ خيولٍ تنحطُّ تحتَ مسيرِها رؤوسُ المُتكبِّرينَ، وبُروقِ سِنانِ رِماحٍ تلوحُ فترَعُدُ لها قلوبُ المارقِين، وراياتٍ تَخفُقُ قلوبُ الأعداءِ لخَفقانِها، وتَنخفِضُ رُتبُهم بها لِرفْعِ شأنِها، لا يرتابُ متأمِّله في أنه البحرُ والعساكِرُ أمواجُه، ومحاسنُه البدرُ والكواكبُ أزواجُه.

حامي حِمى الإسلامِ بالديارِ الرُّوميَّة، ومشيِّدُ تُخوتِ العدلِ في جميع الأقطارِ الإسلاميَّة، القائمُ بنفلِ الجهادِ وفرضِه، الصادِقُ عليه قولُه ﷺ: «**السلطانُ ظلُّ اللهِ في أرضِه**»، حامي حِمى الملةِ والدِّين، إمامُ الغزاةِ والمُجاهِدِين، ناشرُ جناحِ النجاح بالعدل في العالمين، جامِعُ كلمةِ الإيمان، قامعُ عبدَةِ الأوثانِ والصُّلبان، مَعدِنُ العدلِ والفضلِ واليُمنِ والأمان، المُمتثِلُ قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾، مولانا السلطانُ الأعظَمُ عثمان.

مَــن كانَ عنــدَ اللهِ أيـامُــه مــخبوءةً للزَّمــنِ الآخــرِ

أدامَ اللهُ تعالى سعادةَ أيامِه، وجَعلَ البسيطةَ قبضةَ يدَيهِ وطوعَ أحكامِه.

ولا زالَت سِلسلةُ سلطنتِه مسلسلةً إلى انتهاءِ سلسلةِ الزمان، رافِلًا في حُللِ السعادةِ والسيادَةِ والرِّضا والرِّضوان.

ولا بَرِحَتْ ملوكُ الدنيا خُدَّامَه، وسلاطينُ الأرضِ تمشي خلفَه وقُدَّامَه، وقلوبُ الأعداءِ لدى الحناجرِ إذا صفَّ عسكرُه أقدامَه، وأدام سطوتَه وإقدامَه، ولا انفكَّتْ الجبابرةُ خاضعةً لعِزَّةِ شانِه، والأكاسِرةُ مقهورةً بعظيم سطوتِه وسُلطانِه، والنصرُ مَقرونًا بعساكِره وأعلامِه، والسعدُ رائدَ عزمِه وقائدَ اهتمامِه.

ولا زالَ ظلُّ لواءِ فضلِه الشريفِ على الأنامِ ممدودًا، ونظمُ عِقدِ عَدلِه المُنيفِ بدوامِ الأيامِ معقُودًا.

فأيِّدْ دَولتَه التي عزَّ بها الإسلام، وصولتَه التي ذلَّ بها الكفارُ اللِّئام، أَطْلِع اللهُ تعالى شموسَ سعادتِه مُشرقةَ الأنوار، وأَلبِسْ الدنيا مِن حُلل سِيادته ملابسَ الافتخار، واجعلْ تحتَ تختِ سَلْطنتِه سائرَ الأقطار، والبراري والبحار، والقِفارِ والأمصار.

اللهمَّ: انصُرْه وانصُرْ عساكرَه، وكُنْ اللهمَّ مؤيِّدَه وحافظَه وناصرَه، وامحَقْ بسيفِه رقابَ الطائفةِ الكافرةِ الفاجِرَة، يا مالكَ الدنيا والآخرَة.

اللهمَّ: انصر جيوشَ المسلمين، وعساكرَ المُوحِّدين، وفُكَّ أسرَ المأسورين، وخُذ بيدِ الغُزاةِ والمجاهِدين، واخذُل الكفرةَ والمشركينَ أعداءَ الدِّين، وارحَمْ عجزَنا وتقصِيرَنا، ولا تجعَلْ إلى الوبالِ مصيرَنا، وحَلِّنا بحِلْيةِ العِرفان، وزيِّنا بزينةِ الإيمان، ورقِّنا إلى مقامِ الإحسان، وحقِّقْنا بنورِ توحيدِك، وأيِّدْنا بنصرِكَ وتأييدِك، وسدِّدْنا في الأقوالِ والأفعال، وأَسبغْ علينا الإنعامَ والإفضال.

وصلِّ وسلِّم على أفضل العالَم، وسيِّدِ بني آدم، وعلى سائرِ إخوانِه مِن الأنبياءِ والمرسَلِين، وعلى آلِ كلٍّ وصحبِه أجمعين، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

قال مؤلِّفُه سامحه الله تعالى ولطف به في الدنيا والآخرة:

فرغتُ مِن رَقْمِ هذه الفوائد، ورَسْمِ هذه الفرائد، التي يتطلَّبُها لحُسنها ألفُ رائد، بالجامع الأزهر في نهار الخميس سادسَ عشرَ رجبٍ الحرام[1]، مِن شهور سنةِ إحدى وثلاثينَ وألف، أحسن الله تعالى ختامَها، وذلك برسم المشار في أوَّله إليه، والمنوَّهِ باسمه الشريف بالاستدلال عليه، ومحاسنِ الأوصاف والألطافِ لدَيه، مولانا سليمان آغا كشف الله تعالى لبصر بصيرتِه مُخبّآتِ الغُيوب، واستعبد له بحُسن سريرته أحرارَ

(١) الذي في (أ) و(ب) وغيرِهما: أنَّ المؤلِّفَ فَرغ منه أوائلَ المحرَّم، والذي في النسخة (ش) أنه فَرغ منها في رجبٍ، أي: بعدَ نحوِ ستةِ أشهر، وهذا ما يدلُّ على أنَّ للكتاب إبرازتَين، أضاف المؤلِّفُ في الإبرازة الثانيةِ بعضَ الزيادات، كما مرَّ معنا في الهوامش والتعليقات، والله أعلم.

أسرارِ القلوب، حتى يرقى إلى درجات المُقرَّبين، ويتضحَ له نهجُ الحقِّ واليقين، ولا برحتْ أطيارُ الأرائك بمحاسن شيمِه هاتفَة، وأنوارُ الملائكِ بمَغْمور بيته المقدَّس طائفَة، وآياتُ معاليه بالسلامة والسلامِ متلوَّه، وعرائسُ أبكارِ الأفكارِ بدُرِّ مَعانيه مجلوَّة، ولا زالتْ روضةُ....... [1] التوفيق بالسعادة له ناظرة، مَصونة همَّتُه عن عوائق الزمان، ونعمتُه عن طوارق الحَدَثان.

أستوهِبُ اللهَ تعالى له ولسلطانِه السعيدِ عُمرًا يُطاول الأَبد، ومِننًا تَستغرق العَدَد، وزيادةَ سعدٍ تمتازُها الشمسُ وقتَ الضحوة، ورَفاهيةَ عيشٍ يَلزمه الهنا والصَّفْوة، ما رنَّحتْ الأقلامُ بصريرها، والأنهارُ بخريرها، وما ضحكت الأشجارُ بوَرِقِها، والأمطارُ ببُروقِها، ولا زالتْ الأقلامُ خُدّامًا لخواطِره، والطُّروسُ سواحلَ لجواهِره، والمَسارُّ سائرةً إلى سرائِره، وأسواقُ الفضل والآدابِ بوُجودِه قائمة، وأشواقُ القلوبِ بمحبَّته هائِمة، ودِيمُ نِعم الله تعالى في أفنانِه دائمة، ولآلئُ فضائِله مُتلألِئة، وأجناسُ فواضِله مُتوالية، مَن لولاه لم يُخلق القلم، ولم يُعلَّم الإنسانُ ما لم يَعلم.

آمينَ آمينَ لا أرضى بواحدةٍ حتى أُبلِّغَها ألفينِ آمينا

واللهُ تعالى على ما يشاء قدير، وبالإجابةِ جدير، فنسأله سبحانَه في تنوير قلوبنا، وشرحِ صُدورنا، وتسهيلِ أُمورِنا، وأنْ يُصلحَ حالَ وُلاةِ أُمورنا، وأنْ يَنصرَ سلطانَنا، وأنْ يُصلِحَ أحوالَنا، وأنْ يَلطُفَ بنا إنه هو اللطيفُ الخبير، وأنْ يَرحمَنا برحمته يومَ المرجعِ والمصير، آمين.

* * *

---

(١) طمسٌ في النسخة (ش) بمقدار أربعِ كلمات.

* **لطيفة:**

قد صنَّفتُ مصنَّفًا لطيفًا سميتُه: «القولَ المعروف في فضل المعروف»[(١)]، وجعلتُه أربعينَ حديثًا، ولا بأس بذكر خمسةِ أحاديثَ منها هنا لمناسبة المقام:

ـ **الحديث الأول:** عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهلَ المعروفِ في الدُّنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرة، وإنَّ أوَّلَ أهلِ الجنَّةِ دُخولًا الجنةَ أهلُ المعروف»، رواه الطبراني[(٢)].

ـ **الحديث الثاني:** عن عليٍّ وأبي هريرةَ وابنِ عباس وسلمانَ رضي الله عنهم عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أهلَ المعروف في الدُّنيا أهلُ المعروف في الآخرة، وإنَّ أهلَ المُنكر في الدُّنيا أهلُ المُنكر في الآخرة»، رواه الطبرانيُّ وأبو نُعيمٍ والخطيب[(٣)].

ـ **الحديث الثالث:** عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ أحبَّ

---

(١) وهو مطبوع ضمن هذا المجموع في المجلد الثاني منه بحمد الله.

(٢) «المعجم الكبير» (٨/ ٢٦١)، وقال في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦٣): «رواه الطبرانيُّ، وفيه مَن لم أعرفْه».

(٣) «المعجم الكبير» (٦/ ٢٤٦) عن سلمانَ رضي الله عنه، وقال في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦٣): «رواه الطبرانيُّ، وفيه: هشامُ بنُ لاحق، تركه أحمدُ وقوّاه النسائي، وبقيةُ رجالِه ثقات»، «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٩) عن أبي هريرةَ، وفيه: راوٍ منكرٌ، «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٤٤) عن عليِّ بن أبي طالب، في ترجمة: محمدِ بنِ الحسين البغدادي، وهو كذابٌ، وللحديث رواياتٌ عدَّة، وأسانيدُ متعدِّدة.

عبادِ الله إلى الله مَن حُبِّب إليه المعروف، وحُبِّب إليه فعالُه»، رواه ابنُ أبي الدنيا وأبو الشيخ[1].

ـ **الحديث الرابع**: عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «صنائعُ المَعروف تَقي مصارعَ السُّوء والآفاتِ والهَلَكات، وأهلُ المَعروف في الدُّنيا هم أهلُ المَعروف في الآخرة»، رواه الحاكم[2].

ـ **الحديث الخامس**: عن ابن عباس[3] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ معروفٍ صدقة، والدّالُّ على الخير كفاعله، والله تعالى يُحب إغاثةَ اللَّهفان»، رواه الدارقطنيُّ وابنُ أبي الدنيا[4] رحمهما الله تعالى.

صدق رسولُ الله ﷺ[5].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «اصطناع المعروف» (ص١٩)، وفيه: راوٍ منكرٌ ومتَّهمٌ بالكذب، انظر: «المداوي» (٢/ ٤٣٨).

(٢) «المستدرك على الصحيحين» (١/ ٢١٣)، ونصُّه: «المعروفُ إلى الناس يقي صاحبَها مصارعَ السوء... إلخ»، وقال الذهبيُّ: «بهذا انحطَّتْ رتبةُ هذا المصنَّف المسمّى بالصحيح»، وله متابعاتٌ وشواهد.

(٣) وقع هنا طمسٌ في النسخة: (ش)، وقد تمَّمتُه مِن رسالة المؤلِّف «القول المعروف».

(٤) رَوى الدارقطنيُّ قولَه: «الدال على الخير كفاعله» في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ١٠٥٧)، ورَوى ابنُ أبي الدنيا الحديثَ في «قضاء الحوائج» مُقطَّعًا، انظر: (ص٢٩، ٣٩)، وصدرُ الحديثِ في الصحيحَين.

(٥) **جاء في نهاية النسخة (أ)**: «قال مؤلِّفُه: فرغتُ مِن رَقْم هذه الفوائدِ في أوائلِ محرمٍ سنةَ: (١٠٣١) بالجامع الأزهر المَعْمُور بمحروسةِ مصرَ رحمه الله، على يدِ كاتبِه العبدِ الحقيرِ داعيًا ربَّه بقلبٍ كسيرٍ، بمُقلةٍ دامعةٍ، رافعًا بلسانِ الضراعةِ غُفرانَ ما قد جَنيتُ مِن الآثام، راجيًا ربًّا كريمًا عَطوفًا، =

= وَدُودًا برًّا رحِيمًا، وحسنُ الظنِّ به هو اعتقادي، خادِمِ نعالِ الفقراءِ المتشرِّفِ بخدمةِ العلمِ الشريفِ، مُثْنٍ على اللهِ العظيمِ بما منَّ عليَّ بحفظِ كتابِه العظيمِ المُبين، محمدٍ السروريِّ المجاورِ بأحدِ أبوابِ المسجدِ الأقصى الشريفِ المُنيف، فله المنَّةُ عليَّ، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، آمين، تحريرًا في أوائلِ ذي القَعدةِ الحرام سنةَ: (١١٤٣)».

وجاء في نهاية النسخة (ب): «وكان الفراغُ مِن كتابةِ هذا الكتاب نهارَ السبت، إحدى وعشرينَ خلَتْ من محرمٍ سنةَ: (١١١٧) على يدِ الفقيرِ المُعترفِ بالعجزِ والتقصيرِ، عبدِ الرحيمِ بنِ مرعي بنِ يوسفَ بنِ يحيى أخِ المصنِّفِ بنِ يوسفَ بنِ أبي بكرٍ الحنبليِّ مذهبًا، الكرميِّ بلدةً، الأزهريِّ طلبًا، غفرَ اللهُ له ولوالدَيه، ولجميعِ المسلمينَ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبِه أجمعينَ، وسلِّم تسليمًا».